DR. KHALED GHATTASS

الطبعة 3

د. خالد غطاس

ليس هذا ما كتبت!

روايات فلسفية قصيرة

عصير الكتب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أنوار

https://t.me/osn_osn

Scan me!

مكتبة إيلينا
Elena book

ليس هذا ماكتبت

د. خالد غطاس

ليس هذا ما كتبت!

عصير الكتب

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: أغسطس 2023م
رقم الإيداع: 2023/11825م
الترقيم الدولي: 978-977-992-263-8

المؤلف: د. خالد غطاس
تدقيق لغوي: نرمين عياد
تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

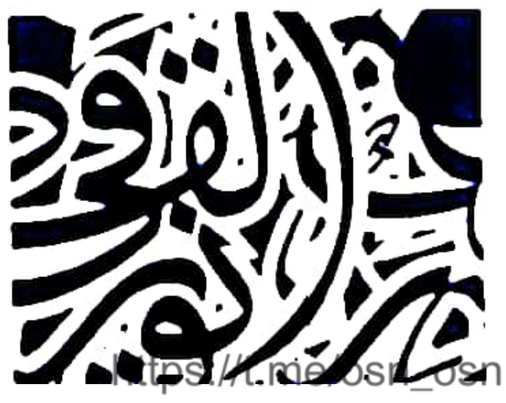

https://t.me/osr_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

DR. KHALED GHATTASS

د. خالد غطاس

ليس هذا ما كتبت!

روايات فلسفيّة قصيرة

عصير الكتب

https://t.me/osn_osn

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإهداء

إلى الذين يزدهم تطرُّف الدنيا

وجنونها اعتدالًا وعقلانية...

إلى الذين لا يخشون مشاعرهم وأفكارهم،

بل يخشون أن لا يشعروا ولا يتفكَّروا...

إلى الذين يتفهَّمون الجميع ولا يجدون مَن يفهمهم...

إلى الذين يسندون كلَّ مَن يقع، وإلى كلِّ مَن يقع...

إلى الذين كرهناهم حتى أحببنا أنفسنا،

وإلى الذين بحبِّهم علَّمونا كيف نُحبُّ أنفسنا

ونُغيِّر ونرتقي بما في أنفسنا...

https://t.me/osn_osn

مكتبة إيلينا
Elena book

المحتويات

توقيع القلب 9

توقيع العقل 11

المُقدِّمة.. ميزان الفاكهة والبشريَّة 15

ليس هذا ما كتبت 23

اجتماعٌ سريٌّ لحكّام كوكب 81

تجربة خَطِرة 109

الفصل الأول 111

الفصل الثاني 117

الفصل الثالث 130

الفصل الأخير 138

حوار مع الطريق 145

قصة رجل غيَّر رأيه 173

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

توقيع القلب

إلى....

أتمنى أن ينال ما كتبت إعجابك، وأن يلمس بعضًا من مشاعرك ويُحرِّك فيك ما كان ساكنًا ويهزه برقَّة، لعل يكون في ذلك خيرٌ. ليس المُهم أن تطابق مشاعرنا، لكن المهم أن نشعر أنَّا لسنا وحدنا.

أراك في الكتاب التالي إن شاء الله.

مع فائق الاحترام والتحيَّة.

https://t.me/osn_osn

مكتبة إيلينا
Elena book

توقيع العقل

إلى....

أتمنى أن ينال ما كتبت إعجابك ورضاك. وأن يستوقفك لحظاتٍ للتأمُّل بالأفكار المطروحة وأن يلامس أجزاءً بسيطةً مِن الحقيقة آملين أن يُحركنا ولو خطوة واحدة لما هو أقرب للصواب. ليس المُهم أن تتوافق أفكارنا تمامًا، ولكن المهم أن نفكِّر.

أراك في الكتاب التالي إن شاء الله.

مع فائق الاحترام والتحيَّة.

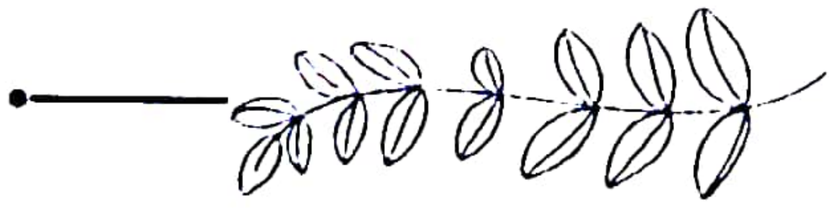

https://t.me/osn_osn

مكتبة إيلينا
Elena book

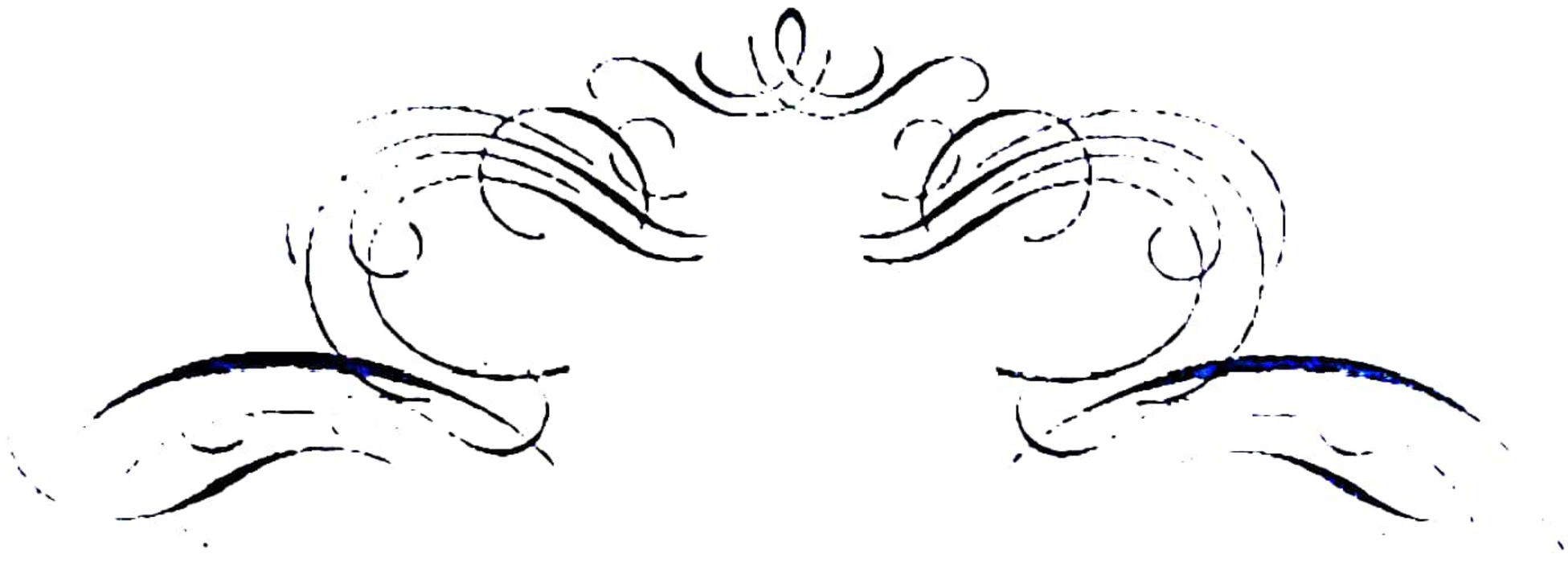

المُقدِّمة

https://t.me/osn_osn

مكتبة إيلينا
Elena book

ميزان الفاكهة والبشريّة

هل سبق أن رأيتم ميزانَ بائع الخضار أو الفاكهة؟

على ما أتذكر، كنت في أواخر الصفوف الابتدائية حين أخذتني أُمِّي لأحد المطاعم في سوق صيدا الشعبية، على غير عادتها. مطعم قديم داخله مُظلم بعض الشيء وزاد في ظلمته لون الخشب الداكن والسكون الذي فيه على عكس صخب الحياة في خارجه. جلست أُمِّي وأختي في سكون الداخل وظُلمته وخرجت لأستكشف صخب الخارج ونوره.

كان مما رأيت على العتبة الخارجيَّة للمطعم ذاته ماكينة كبيرة موصولة بجرَّة غاز، على مستوى نظري. رفعت عينيَّ وإذ بي أرى مشهدًا غريبًا استثار في داخلي الفضول والأسئلة والتناقضات والمتعة والذنب ولا أذكر ماذا غير. إنها ماكينة

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

شوي الدجاج -ما أتفهنا عندما كنا أطفالًا-، وقفت أراقبها مشدوهًا تمامًا منعزلًا عن كل المحيط. في الخلفيَّة نارٌ صفراء تخرج من أنابيب نحاسيَّة يصل بينهما لهبٌ أزرق، وفي المقدمة زجاج مُلطَّخ ببقع الدهون بدا لي كأنه شاشة تلفزيون، وفي الوسط كان المشهدُ. أسياخ متراصٌّ فيها دجاج (فراريج) تدور وتتساقط دهونها وتتفاوت حمرتها حسب موقعها، وراحت أسئلة الطفولة تدور برأسي كما يدور الدجاج:

أهذه جهنَّم؟

ماذا فعل هذا الدجاج المُجرم لينال هذا؟

هل قالوا إنهم غسلوا أسنانهم قبل النوم لكنهم لم يكونوا قد فعلوا؟

أهذا ما سيحل بنا إن كذبنا أو بخلنا أو عصينا أهلنا ومُعلمينا؟ أو أكثرنا من الأسئلة عن الله وجنته وناره؟

سيُدخِلون أسياخًا في جلدنا ويُقلِّبوننا فوق النار، وكلما نضجَتْ جلودنا بدَّلونا جلودًا غيرها؟

إن كنت عزيزي القارئ من أهل هذا الزمن سوف يتبادر إلى ذهنك وقلبك غضبٌ ممزوج بشفقة، وتسأل ما هذه الطفولة المعذبة والمليئة بالمفاهيم المخيفة التي تُكبِّل الإنسان منذ

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

طفولته، وتصنعه بعُقده وأزماته وتصوراته ومخاوف ليس له بها قبلًا وما إلى ذلك، وقد تنصرف حتى إلى تحليلي ككاتب وتستنتج من تحليلاتك لعقدي وشخصيتي أنا وأبناء جيلي، وحتى منكم مَن قد يشفق عليَّ وقد يرغب في مساعدتي للتخلُّص من هذه «التورمات» العالقة. ولكن لعلي أُخفف عنك الصدمة لو قلت لك إني بخير تمامًا، إنها فقط المبالغة التي أصابتنا في دنيا اليوم أنا وأنت. لا تنسَ عزيزي القارئ أنه مشهد لولد يقف أمام شواية الدجاج ليس إلَّا.

وأنا أقفُ هناك مشدوهًا من الدجاج الذي يُشوَى وسارحًا في خيالٍ مُوجعٍ كأني أدور مكانها، تدريجيًّا أصابني الملل. الملل الذي لا مفرَّ منه حين نألف مشهدًا أو أناسًا أو شعورًا ما. وعندما يملُّ الإنسان من هيامه فإنه يعود تدريجيًّا للتنبُّه لما حوله ليحاول أن يظفر بما قد يبعث في نفسه نبض استكشاف الغموض الجذَّاب وتوقع المجهول الجديد.

وما إن استرجعت تنبُّهي لما حولي وإذ بي أرى سوق الخضار مقابل المطعم -لعلها قد أزيلَت اليوم- هي عبارة عن خيمة كبيرة، بدت لي، من حجمي وموقعي آنذاك، أنها تحوي آلاف الناس والباعة على عرباتهم المثقلة بالخضار والفاكهة. تجمهُر كبير صاخب لكن لا تفقه من صخبه شيئًا، كم من

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

المفاوضات تتم في آنٍ واحد تصدر صوتًا يشبه هدير مملكة النحل، وقد يعلو صوت بائع ليخرق الضجة بضجة أعلى منها مناديًا على بضاعته بجملة عن الجودة وسعر وحدة القياس «الكيلو». وعلى زاوية كل عربة تقريبًا يوجد ميزان.

هل سبق أن رأيت عزيزي القارئ ميزان بائع الخضار أو الفاكهة؟

لا أتكلم عن الميزان الرقمي الذي نجده اليوم في السوبرماركت، تضع عليه ما تريد وزنَه فيعطيك رقمًا دقيقًا، لكني أتكلم عن الميزان القديم صاحب الكفَّتين. يضع البائع كتلة من الحديد لها وزنٌ مُحدد في كفة وفي الكفة الثانية يضع كيس الفاكهة أو الخضار الذي يرغب في وزنه.

جلست أراقب هذا الميزان المتأرجح ونسيت جهنَّم الدجاج خلفي. ولاحظت أن عملية الوزن تبدأ بكفة معيار الحديد (كتلة الكيلوجرام الواحد غالبًا) راجحة تمامًا ومتطرفة كليًّا، تعطي انطباعًا أن الكفة الفارغة لا وزن لها على الإطلاق. فيأتي الزبون بكيسٍ وضع فيه ما انتقى من خيرة الخضار أو الفاكهة يرغب في وزنه ليدفع ثمنه. ويضع الخُضري الكيس على الكفة الفارغة، وطبعًا، فإن عملية الوزن تنتهي عندما تتوازن الكفتان على السواء كدليلٍ أن ما في الكيس من خير البضاعة يزن تمامًا كوزن معيار الحديد.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

ومنذ ذلك اليوم إلى يومي هذا ما رأيت ميزانًا تساوت به الكفتان دون أن ترجح الكفَّة التي كانت فارغة. إما أن يكون كيس الفاكهة أثقل من معيار الحديد فترجح بها فورًا فيأخذ الوازن بعض الفاكهة لتوازن الكفتين، وإما أن يكون الكيس أخَفًّا فيزيد الوازن أكثر فترجح، فيعود لينقص منها أو يستبدل حبة أكبر بواحدة أصغر إلى أن تتوازن الكفتان. لا مفر من رجوحٍ إلَّا فيما ندر جدًّا، وكلما كان الوازن أرعن أو قليلَ الخبرة والحكمة، كان الرجوح أوضح وأقسى وقد تقع الفاكهة السليمة على الأرض وتتلطّخ بوحل سوق الخضار وتزول نضارتها مهما كانت جميلة.

وأنا على أطراف الوقوع في الملل الثاني، نادتني أُمّي من داخل المطعم:

- خالد، أجا الأكل.

فدخلت وبقي ذلك الميزان عالقًا في رأسي.

واليوم أقول ما أشبه الدنيا بذلك الميزان، وما أشبه الواقع بالحديد الراسخ في الكفة الراجحة، وما أشبه المفاهيم والحقوق بالفاكهة اللذيذة، ولكن ما أشبه البشريَّة ببائع خضار أرعن عديم الخبرة بالوزن. تعلو إحدى كفَّتَي الميزان فيثقلها بغبائه فتعلو الثانية فيثقلها من جديد، ويبقى الميزان راقصًا متأرجحًا

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

بين تطرُّفين، مُبالغًا في كل حقبة. لا أدري إن كان هذا قدر البشريَّة ليبقى فيها الحدث أو أنه خيارها لتبقى فيها السوق، أو هكذا هو الإنسان يخاف الوصول إلى لحظة التوازن إذ إنه يتوهم أنها توقف الحركة وتعني الموت أو الملل.

ويبدو لي أننا أحوج ما نكون لوازنين حكماء هادئين حريصين وهُم قلة، ليعدلوا مستوى الكفتين قبل أن تزيد الهوَّة ولا يعود حتى تأرجُح الكفتين ممكنًا. فنزول نحن ويزول الميزان الذي أرى أن فيه قدسيَّة وواجبًا علينا ألا نطغى فيه، إذ تقول الآية الكريمة في سورة الرحمن: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾.

هل طغينا في الميزان؟ هل نسير في هذا الطغيان؟ أم هي فقط تلك المرحلة التي تسبق التوازن؟ أم أننا نسير بخُطى سليمة واثقة لإنتاج القسط في الميزان؟

لا أعلم، ولا أعلم إن كان عليَّ أن أعلم...

وهذا الكتاب ليس محاولة للدفع لأن ترجِّح كفة على كفة، ولا فيه ادعاء لأيٍّ من الكفتين يجب أن تُرجِّحه. إنه ببساطة خمس قصص خيالية، ليست نظريات ولا اعتقادات ولا ما شابه، ببساطة قصص قد تبدو أنها تصف واقعَ الحال أو ما نخشى أن يصبح واقعَ الحال إن لم نلتفت للحال.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

غالبًا لا أتوفَّق في مُقدمات كتبي، ولكن هذه المُقدمة أراها نجحت بعرض المفاهيم التي سيتطرق لها الكتاب، سيتطرق ولن يعالج ولن يجيب، ولكن سيستعرض قصصًا حول هذه المفاهيم، وما زلت آمل كما أملت في كتابي السابق «وكان النفاق جميلًا» ألا تضيع الفكرة في القصة ولا القصة في الفكرة.

أقول إنها مقدمة مُوفَّقة، إذ إن معظم المواضيع التي سوف تدور حولها القصص الخيالية الآتية قد ذكرت في قصة المقدمة بشكل ما، بدءًا بصمت أُمِّي وأختي وانتظارهما لي في الداخل بما في ذلك من دلالات في قصة قد تستفز الرجال، ثم عن قصة خيالية تدور في كوكب آخر قد تستفزُّ النساء (ولا سيما النساء اللواتي استفزتهنَّ كلمة عزيزي القارئ دون عزيزتي القارئة)، ثم عن تجربة خطِرة وحوار غريب مع جماد، وعن قصة الرجل الذي غيَّر رأيه، وعن مفاهيم وأفكار تشبه الفاكهة النضرة بظاهرها لكن طعمها بعد أن تتذوَّقها خفيفٌ باهتٌ.

أتمنى عزيزي القارئ وعزيزتي القارئة أن يستوقفك ما كتبت هنيهةً من الزمن المستقطع بعد كل قصة أو خلالها، وأتمنى أن لا تنسى أننا في بحث دائم عن الصواب والحقيقة، وأتمنى أن يعجبك ما كتبت، وإن لم يعجبك فتذكر أن: «ليس هذا ما كتبت!».

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

ليس هذا ما كتبت

https://t.me/osn_osn

مكتبة إيلينا
Elena book

أروي لكم قصة حياة رهف متنقلًا من حاضرها إلى ماضيها القريب والسحيق. نبدأ من جلساتها مع طبيبٍ نفسيٍّ مُتميِّز، بدأت تزوره رهف منذ شهرٍ تقريبًا إلى اليوم إثر عارض غريب جدًّا اكتشفته مؤخرًا. وبين الجلستين نقفزُ إلى تجربةٍ أو صدمةٍ تعرَّضت لها رهف في الماضي، نرويها رجوعًا نحو طفولتها. كلُّ قصص الصدمات حدثت في الواقع، ولكن الجلسات حدثت في الخيال.

منذ قرابة ثلاثة أسابيع (الجلسة الأولى)

نظر إليها الطبيب النفسي مشدوهَ البصر غائب البصيرة. لثانيتين أحسَّ كأنه رأى آيةً ومعجزةً أمام عينيه، ولكنه مضطرٌّ إلى أن يكفر بها لأنها لا تنسجم مع أيٍّ من تلك الكتب الضخمة في مكتبته ولا مع الدراسات الحديثة في حاسوبه، ولا الحالات التي مرت عليه طوال ثماني عشرة سنة التي مارس فيها الطب

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

النفسي، رأى فيها وعالجَ آلاف الحالات التي لشدة اختلافها يصعب تصنيفها في مجموعات. ولكنه مع ذلك أحسَّ بشغفٍ عميقٍ كان قد نسيَه واليوم ها هو ذا يتجدد ويذكِّره بالمعنى الذي اختار من أجله أن يختص في هذا المجال.

رأت هي هذه الريبة السابحة في عينيه، فقالت لتميل بدفَّة كفره بحالتها إلى دفَّة الإيمان فقالت:

- أقسم لك يا دكتور إن ما قرأته أنت في هذه الورقة التي بين يديك هو ليس ما كتبته أنا عليها.

انتبه الطبيب إلى ذهوله الطفولي، فانتصب في كرسيه الفخم ليسترجع وقاره كرجلِ علمٍ في محاولة لكسب ثقتها بقدراته وخبرته. قال بصوت تعمَّد أن يثقله ويصب فيه كلَّ ما استطاع تحصيله من سنين:

- لكي نتمكَّن من التشخيص السليم، علينا أن نحاول التجربة من جديد، وإن كان هذا قد يتعبكِ قليلًا.

قالت:

- لا مانع.

انتزع ورقة من دفتر كان بجانب يمينه وناولها قلمًا كان بيده وقال:

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

- أريدك أن تستحضري أكثر اللحظات قساوةً في السنوات القليلة الماضية وتكتبي لمن تعتقدين أنه قد تسبب بهذه الآلام لك. حاولي ألا تعودي بذاكرتك كثيرًا لتكون مشاعر الذكرى حاضرة لم تجف ولم تغلفها سنوات العمر بلفائف النسيان. حاولي أن تُطلقي العنان لنفسك وتتحرري في توصيفك لغضبك ورغباتك بالجرح والانتقام، ولا داعي أن أذكِّرك أن هذه الورقة لن يقرأها أحدٌ غيري.

جاوبته بوضوح وصرامة اكتسبتهما مؤخرًا:

- ما زلت لا تصدقني حين أقول إنني لا أبالي على الإطلاق مَن قد يقرؤها، أريد فقط إخراجها وبعد ذلك فليكن ما يكون.

أمسكت يُمناها القلم واستدارت بجسدها لتقابل مكتبَ الدكتور، ووضعت يسراها على رأس الورقة. لم تبذل أي مجهود لتتذكر، فقد كان غضبها حاضرًا في جوفها، وما ينتظر إلا أن تمسك يدها بقلمٍ تُجرِّح به ورقة ليخرج. راحت تكتب ما يدور في رأسها وكتبت ما يلي بصمت تام:

«يقولون إنك إن كرهت أحدًا بشدَّة فهذا يعني أنه ما زال فيك شيءٌ يحبه. وتتخطَّى هذا الحب فقط عندما تتخطى هذا الكره وتصل إلى اللامبالاة، كم هم مخطئون. كلُّ شيء فيَّ الآن

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

يكره كلَّ شيء فيك بعد أن كنت لا أبالي بك سنواتٍ طويلة، لعل قاعدتهم لا تنطبق عليَّ. ما عدت أطيق رنين ملعقتك في طبق طعامك لا في غداء ولا عشاء. أصبح نقر كعب قدميك على بلاط بيتنا نذير شؤم إذا ارتفع وأنت تتجه صوبي وبشرى سارة إذا انخفض وأنت تبتعد. لم أعد أطيق أن أرى اسمك على هاتفي، ما عدت أطيق أن يرن هاتفي أصلًا مخافة أن تكون أنت المُتصل. أصبحت تتعرَّى أمام عيني كلما ادعيت الرجولة، ما عدت أراك رجلًا، أو ما عدت أراك أصلًا. إن كلَّ ما...».

شعر الطبيب أن الوقتَ الذي أخذته لتكتب بصمتٍ كافٍ. قاطعها الطبيب سائلًا أن تعطيه الورقة فقال:

- شكرًا، هذا يكفي، سأقرأ عليكِ الآن ما كتبتِ، حاولي أن لا تنفعلي يا عزيزتي.

ناولته الورقة فوضعها على مكتبه وأرسى نظارته على طرف أنفه، وراح يقرأ ما رآه مكتوبًا عليها بأُمِّ عينيه، فقرأ ما يلي:

«أعرف أني قد بالغت بردَّة فعلي وأطلقت العنان لغضبي، وسرحت بي غيرتي وعنفوان أنوثتي. ولكن هذا ما هو إلا عتاب الحب الدفين الذي تربَّى بداخلنا وكبرنا أنا وأنت في أحضانه. ستسامحني على ما قلته لأنك تعرف كل ما أكنُّه لك فأنا طفلتك.

https://t.me/osn_osn

مكتبة إيلينا
Elena book

سوف أصفح أنا عن خيانتك لأني أعرف ما تكنُّه لي فأنت ابني. سنتخطى هذه الأزمة معًا ونهبُ طفلينا الأسرة الأقرب إلى الكمال. لن تذهب تضحياتي سُدى، ولن أقبل أن نفشل كزوجين. لطالما كنَّا للأصدقاء وللأهل مثال الحبيبين اللذين ما استطاع الزواج أن يسلبهما شغف الحياة وما استطاعت العشرة أن تخاوي بين جلدهما. ما زال فيَّ ما يعشق كل تفاصيلك منذ أن تفتح عينيك إلى أن نأوي كلانا إلى فراشنا. وما زالت روحي بانتظارك كلما غبتَ. إن كل ما...».

وصمت الطبيب بعد انتهائه من قراءة المقطع الذي في الورقة. أبقى رأسه منحنيًا ورفع عينيه من فوق نظارته التي فوق أنفه وسألها:

- هل هذا ما كتبتِ في الورقة يا عزيزتي؟

قالت وهي ترتجف خوفًا كمريض أخبروه للتو أنه أُصيب بالمرض القاتل:

- أقسم لك يا دكتور، ليس هذا ما كتبت.

* * *

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

خرجت رهف من حجرة نومها وأغلقت الباب خلفها بهدوء. أغمضت عينيها لثانيتين، أخذت خلالهما شهيقًا طويلًا، كأنها تستخدم هذه الأنفاس كخيوط أو حبال تربط بها روحها المرتعشة في أعماقها وتشدُّ وثاقها. وكلما تسللت رعشة وجدانها التي بداخلها إلى الخارج وظهرت على أطراف أناملها، قامت بحركةٍ مستترةٍ تسحب فيها خصل شعرها الأسود المسدل على خديها إلى خلف أذنيها، تُبقيها أناملُها خلف أذنيها لثانيتين فتخفي بذلك رعشتها عن الناس وعن نفسها.

قد علَّمتها حياتها، التي تبدو مرفَّهةً وناعمة، هذه وغيرها من الخدع التي تحجب حقيقة مشاعر الإنسان تحت طبقات متراكمة. تلك الحيَل التي يدفن بها المرء تفاعله الصادق مع كل حدثٍ تتأهَّب له نفسه كالغضب والكره والنشوة والحب والنقمة والثورة، وغالبًا ما يدفنها بعد حديثٍ مع نفسه أو مُحيطه الخائف المتأقلم. يتذكَّر أو يذكِّره المحيط بمسؤولياته وقيوده وتوقُّعات المجتمع التي عليه أن يلقاها، إلَّا أن اليومَ تحديدًا أحسَّت رهف أن شيئًا ما قد اختلف.

بقي خلف باب الحجرة المغلق، رجلٌ في السابعة والثلاثين من العمر. جلس على حافة سريرهما واضعًا مرفقيه على ركبتيه مُحاوِطًا رأسه بكفيه، وفي عينه اليسرى دمعةٌ تجف.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

دار في رأسه وهو يحدِّق إلى أرض الحجرة ويلوم نفسه تارةً ويشتُّ بها تارةً أخرى: «كيف تركت هاتفي مفتوحًا؟ لماذا اعترفت لها؟ من أين اشترينا هذه السجادة؟ هل ستطلب الطلاق وتتركني والأولاد؟ جواربي هذه أصبحت قديمة جدًّا سأشتري مجموعة أخرى، لقد ضحيت لزواجنا وحياتنا كثيرًا أما آن الأوان لأن أعيش؟ ماذا لو لم تسامحني؟ هل ستخبر أهلها؟ أشعر بالجوع!».

قام من مضجعه وراح يبدِّل ملابسه متابعًا حديثه مع نفسه: «سوف تسامحني، لطالما فعلت. سيمرُّ هذان اليومان بهدوءٍ ثم نعود، كما كنا نعود، أين ستذهب فهي لن تستطيع ترك الأولاد، لن تستطيع تركي فأنا أبوها وابنها وهي أُمِّي وابنتي، سأرتدي هذا القميص».

كان يغلبه الأمل حيث إنها فعلًا كانت أُمَّه وابنته، وكان قد رأى في طفولته أمه قد مرت بهذا وأسوأ منه مع والده وكانت تحزن يومين أو ثلاثة تقريبًا دون أن يعرف هو السبب، وبعدها تعود إلى طبيعتها كذلك دون أن يعرف السبب. خرج من الغرفة فوجد زوجته حزينة صفارُها قاتم تلاعب ولديْها، اللذين يريان أمَّهما حزينة ولا يعرفان سبب حزنها. وبطبيعة الحال ربطَ ذكرى أمه بزوجته واستنتج أنها ستمر، ولكنه لا يدري أن شيئًا ما قد تغيَّر فيها.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

خرج من البيت متثاقلًا بعد أن قبَّل جبهتها. كانا قد اتفقا، مثل كثير من الأسر المعاصرة، أن يُبقيا صورة الأسرة الأقرب إلى الكمال والعلاقة بينهما بأبهى حُلَّة أمام الأولاد. وبقيت هي مع ابنيْها تقاوم دمعاتها، لكي تبقى على عهدها. فجأة ودون أي إنذار أو تفكير انتصبت بهدوء مخيف كالمومياء ومشت نحو غرفتها، كموظَّف عزم على الاستقالة من وظيفة لطالما كرهها واليوم لن يثنيه عن تركها تأنيب مدير ولا إرشاد عرَّاب ولا دعوة زوجة ولا تخويف أُم ولا حتى افتقار شبه مؤكَّد. لقد فاق ما تشعر وسع روحها وملأها غضبٌ يتزايد ونقمة تستعر، كانت قد اعتادت أن يهدآ مع مرور الدقائق بعد الحدث ولكنْ اليوم شيءٌ ما قد تغيَّر فيها.

لملمت بعض الضروريات من قليل الملابس وضعتها في حقيبة صغيرة مع فرشاة أسنانها وبعض ما يلزم النساء. لم يكن لديها كثير من الأصدقاء حيث إنها كانت قد خسرت معظمهم في رحلتها من الخطيبة إلى الزوجة إلى الأم. اتصلت بإحدى الصديقات التي أصرت على البقاء في حياتها وسألتها أن تأتي لتأخذها إلى أي مكان. قلَّما ما يمتزج في إنسان هذا الكم من اللامبالاة والغضب في آن واحد.

قبل أن تصل صديقتها، كانت قد وصلت هي إلى الشارع، فلم تعد تطيق ضيق المنزل ولا لثانية. انتظرت عند محل «سمانة»

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

أسفل العمارة المقابلة لعمارتها. ما إن ركبت سيارة صديقتها أرسلت رسالة قصيرة إلى مَن كان حتى هذه اللحظة زوجها: «الأولاد في المنزل، وأنا خرجت» وأقفلت هاتفها.

شعرت صديقتها وهجَ غضبِها يشعُّ على امتداد جلدها فلم تنطق بكلمة. أدركت أن أيَّ سؤال مهما كان سخيفًا سيفجِّر فيها كل كامن. توجَّهت الصديقة بسيارتها بصمت إلى مكان على شاطئ البحر بدت تعرفه تمام المعرفة ولم تخبر به أحدًا من قبل، وكأنها تُبقيه لها للحظات مماثلة عاشتها أو تعلم أنها ستعيشها.

بتناغمٍ تام ودون كلام ترجلتا من السيارة وتوجَّهتا إلى آخر صخرةٍ غير مبتلَّة تمكنهما من الجلوس عليها، وسحبت الصديقة علبة سجائرها من حقيبتها وأخرجت منها سيجارة ليست كباقي السجائر في العلبة، وكأنها أيضًا حُجزت لهذا المكان بالذات وهذه اللحظات بالذات وناولتها إلى صديقتها.

قالت بعد صمت لازمها من قلب حجرة نومها ومن تلقاء نفسها دون سؤال:

- سأكتب يا نجوى، سأكتب كلَّ غضبي، أعتقد أنه سيحرق الأوراق. سأكتب مدى اشمئزازي وأسكب دم السنين ودمعها، سأدوِّن رفضي وثورتي ونقمتي وأزلزل الدنيا.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

سأجعل أقلامي تصرخ وتقذف حبرها الأحمر الملتهب كتنِّين الروايات الخيالية، سأحرر نفسي السجينة وأطلق لها عنان الحرية المجرمة التي لا تُبقي ولا تذِر. ولا أريد أن أخبرك ما حدث لكيلا يهدأ بي ذلك البركان الذي لطالما أخمدته بالشكوى ودفنت ناره بما يرتدُّ إليَّ من كلام، عندما أُنهي هذه السيجارة الغريبة ضعيني في مكان مع قلمٍ وورق.

أومأت نجوى بالموافقة وفي جوفها رفضٌ بسيطٌ للفكرة أصلًا، فهي تعتقد أن الكلام والتعبير يستحيل أن يصف حقائق ذواتنا وقالت بشيء من التفلسف في غير موضعه:

- إن الإنسان قد ابتكر اللغة ولكنه لم يبتكر أحاسيسه. وكيف يعقل أن تصف الكلمات المبتكرة ما يتفوَّق عليها ويسبقها ويرتقي عنها. فحين يصف الوضيع والضيِّق والمحدود ما هو أكثر منه رِفعة وصدقًا واتساعًا، فإنه يلطِّخه ويحط من قدره، ولهذا ابتدع الكلام.

وصلتا مع وصول العتمة إلى منزل نجوى، الذي تعيش فيه مع والدتها وخادمتها. شقة واسعة حديثة، ملأها أثاث باهظ الثمن رفيع الذوق بشكل بارزٍ جدًّا حتى للذين لا يفقهون في الأثاث شيئًا. فلا تجد حائطًا ولا زاويةً إلَّا فيها تحفة يستشعر الناظر جمالها، دون أن يدري أن نصف هذا الجمال تضفيه

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

الإضاءة التي صُممت خصيصًا لهذا الركن من المنزل بالذات. يعجز المدقق أن يرصد أي نقص عن كمال التفاصيل ودقتها. كأنَّ مَن حاك السجاد قد اتفق مع النجار على أن تتلاقى زوايا نقش السجاد مع أرجل الطاولات. كمال ودقة رائعان قد يوحيان ببعض الوحدة وقلة الحياة وبرودة الانتظام.

حرصت رهف ونجوى على الصمت عمدًا، كأنه مغارة مظلمة بها كنز يفسده النور والكلام. وكان الغضب لا يزال يستعر في جوف رهف وتكاد لا تطيق انتظارًا لتبدأ بالكتابة. بعد الروتين النسائي للتحضر للنوم، دخلتا إلى غرفة نوم نجوى. جلست رهف على طرف السرير مُنكسة الرأس كالمهزوم، وراحت نجوى تجتاح الجوارير والخزائن الخشبيَّة بحثًا عن قلمٍ ودفتر وقالت بتذمُّرٍ مصطنع وبصوت منخفض مسموع كأنها تحاول إضحاك رهف:

- مِن أين آتي بقلمٍ لهذه المجنونة؟ لا أعتقد أني قد رأيت قلمًا منذ سبع سنوات. هل ينفع أن أعطيها قلمَ كحلِ العينين؟

ثم خاطبتها بصوت أكثر وضوحًا:

- لقد قلتِ إن غضبك لونه أحمر، هل ينفع إن كتبتِه بقلم أحمر الشفاه؟ من أين آتيكِ بقلمٍ الآن؟

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

وانفجرتا بضحك يشبه الهستيريا وامتزج شعور الهزيمة في رهف بشعور آخر مشترك بينهما. كأن نجوى قد سلبت منها بعض المعاناة وأعادت إليها بعضًا من رشدها بهذه المزحة السخيفة. وبمجرد ما استرجعت أنفاسها قالت رهف:

- لا أريد أحمر شفاهك، أعتقد أن لدي قلمًا في حقيبتي. ائتني ببعض الأوراق وأخلِدي إلى النوم يا جاهلة.

خرجت نجوى بسرعة من الغرفة قاصدة إحدى الخزائن قرابة باب مدخل الشقة، فتحتها وسحبت أول مفكرة وجدتها. هذه المفكرات التي تُوزَّع على الناس مطلع كل عام ويسعدون باستلامها ولثانيتين يراودهم شعور بأنها سنة جديدة، وقد تساعدهم هذه الهدية على الانتظام لأنها أكبر أو لأن صفحاتها مسطَّرة أو لأن فيها أيامَ الأعياد، يبحثون عن أي اختلاف مهما كان بسيطًا بينها وبين مفكرة مطلع العام الماضي ليقنعوا أنفسهم أنه عامٌ جديدٌ. تمر الثانيتان ويذهب هذا الشعور وتُلقي المفكرة فوق أخواتها وكأنها عدَّادُ سنين صامت يتستَّر في هذه الخزائن. لم تعتقد نجوى قط حينما ألقت مفكرة العام 2020 فوق مفكرة العام 2019 أنها ستعود لتأخذها، ولكنها اليوم أعادت هذا العداد الصامت سنة إلى الوراء، أو صنعت فيه فجوة، حيث إنها سوف تُلقي سنة 2021 فوق 2019 وكأن سنة 2020 لم توجد، ولم تمر ولم نعشها.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

في هذه الأثناء سحبت رهف قلمها من قعر حقيبتها، وأزاحت أواني العطر والتجميل والتجمُّل التي لا تنتهي عن تسريحة نجوى، ودفعت هذه العلب الصغيرة والكبيرة إلى الخلف، لتصنع مجالًا للورق الذي طال انتظاره. وفي لحظات انتظارها أمام المرآة التقتْ عينيها فحدَّقت إليهما وأحست كأنها نفذت من خلالهما إلى سجين بداخلها، حولته سنين العزلة إلى شرير غير مؤهل للعيش بين الناس فتوارى وطال اختفاؤه واليوم أطلَّ وينتظر التحرر بفارغ الصبر.

قاربت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. تلحَّفت نجوى في سريرها ناحية اليمين تاركةً لرهف مكانًا بجانبها لتنام فيه عندما تنتهي من الكتابة.

أمعنت رهف النظر في الورقة البيضاء، كأنها بِكرٌ في ليلة زفافها وانتصب القلم بين أناملها مستعدًا للقاء عروسه العذراء. أغمضت عينيها واستحضرت واستجمعت كامل حقدها الدفين راحت تبحث في خبايا صمتها وبدأت بالكتابة، وانساب حبر القلم بسلاسة ورقَّة ودار بين الثلاثة انسجامٌ غريبٌ، وانتشت رهف بتلك الحرية التي فارقتها منذ سنين. راحت ترتجف حينًا كلما ازداد الغضب، وتبكي أحيانًا كلما شعرت بأنها ترفع الظلم عن نفسها.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

قليلٌ منَّا مَن رأى بركانًا يثور، قد نعتقد أنه يثور بعشوائية وفوضى ويقذف حممه دون مبالاة في أي اتجاه ولكن قد يكون هذا فقط في الأفلام السينمائية، لعل البراكين أذكى وأدق مما نعتقد. قُتِل الإنسان ما أظلمه، إنه يظلم بتعميمه حتى البراكين. يصبر البركان ويحتمل كل هذا الغليان بداخله لآلاف السنين ويثور مرة ليومٍ، ذاك إنْ ثار. وكل ما نتذكَّر عن البركان أنه شرٌّ مستطير وثورة ونار قاتلة، ولا نذكره بأنه بركان الصبر والتحمُّل أو بركان الفرص الثانية التي يهبها في كل يوم لا يثور فيه.

إلا إن بركان رهف راح يثور بدقَّة وتراتبيَّة متناهيتين. فتُنشَأ الحمم الحارَّة في منطقة ما بين أسفل القلب وفوق المعدة، وسرعان ما ترتقي إلى رأس رهف وتمتزج بذكريات وأحداث بدأت تفهمها الآن، وتشعرها بغباء عارم فتزداد الحمم احمرارًا ورعشة ثم تنساب إلى معصم يديها حيث يتراقص القلم وكأنه زئبق فوق صفيح ساخن. ويرتشق الحبر من رأسه وكأن القلم نفسه يذوب من شدة حرارة مشاعرها.

قامت بعدما أتمَّت مِن الكتابة ما هدأت به نفسها، وارتشق القلم مُنهك من عزم ما لقيَ من غضبها، فغطته ليرتاح بين دفتي المفكِّرة. رفعت الغطاء برقة واندسَّت تحته بهدوء كي لا توقظ صديقتها، وغرقت في سُبات عميق.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

صباح اليوم التالي، استيقظت نجوى وتسحَّبت من السرير بهدوء كما فعلت رهف بالأمس ولكن بالاتجاه المعاكس -كعادة معظم النساء في هذا العمر-، توجهت إلى مرآتها لترى إن ازدادت تجاعيد وجهها أو ازدادت العتمة تحت عينيها خلال الساعات الخمس التي نامتها. فوجدت القلم بين دفتي المفكرة -فراودتها حشريَّة النساء- ففتحتها وقرأت كل ما كتبته رهف وارتسمت على وجهها كلُّ ملامح الاستغراب وراحت تشكك بيوم أمس وأقفلت المفكرة وقالت:

- ما كنت أعتقد أن هذا عتابه، ولا أنها ستسامحه بهذه السهولة. أين ذلك الغضب والثورة والرفض والقرف، هل ستعود لهذا الرجل الشرير؟ أعتقد أن عليها الذهاب إلى طبيب نفسي.

* * *

منذ قرابة الأسبوعين (الجلسة الثانية)

فيما يقارب الساعة التاسعة صباحًا، دخلت مساعدته «شذا» العيادة وفي حركة اعتادتها منذ ثمانية عشر عامًا تقريبًا، علَّقت معطفها خلف الباب وفتحت كوة صغيرة في الحائط خلف الباب ورفعت زرًّا أضاءت به المكتبين، مكتبها ومكتب الطبيب.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

نقرت باب مكتبه بهدوء حيث سمعت صوت فيروز يتسرَّب من زوايا الباب المُغلق، فأَذنَ لها الطبيب بالدخول.

دخلت عليه فوجدت على مكتبه كتابًا ضخمًا مفتوحًا ووجدته مادًّا جسده في كرسيه الضخم، دافعًا ظهره إلى أقصى الخلف وواضعًا يديه الاثنتين خلف رأسه ورافعًا نظارته إلى أول رأسه الأشيب وناظرًا تجاه شباك الغرفة، لكن سَرَحَان ذهنه واضح دون شك.

قالت شذا:

- لم أرَك تأتي العيادة قبلي أو بالأحرى قبل الساعة العاشرة صباحًا منذ مدة طويلة، هذا يومك الرابع وأنت على هذه الحال، لعلَّها حالةٌ أشعلتْ فيك إمَّا الشغف لغرابتها وإمَّا الأنا لصعوبتها، وفي الحالتين لا تريدها أن تستعصي عليك.

رد الطبيب مبتسمًا:

- بعد هذه السنين يا شذا، لا شك أنك تعرفينني أكثر مما أعرف أنا نفسي. كثيرٌ من الناس يعتقدون أن علماء النفس يدرون ما يجول في رؤوس الناس، وبهذا المنطق وبعد عشرتي الطويلة بك أعتقد أن مساعدات علماء النفس هم

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

على رأس هذا الهرم، لأنهن يعلمنَ ما يجول في رؤوس علماء النفس أنفسهم.

قالت شذا:

- ما هذه الحالة التي شغلت بالك لأسبوع، أي مريض، رهف أليس كذلك؟

قال:

- لم أرَ مثل هذه العوارض من قبل، لا أعتقد أنها هلوسات، فهي تبدو سليمة العقل ولا تأخذ أيًّا من الأدوية التي قد تسبب مثل هذا العارض الغريب.

وراح يكمل كأنه يناقش الحالة مع نفسه أو مع أحد الخبراء في مؤتمر علمي:

- ولا يوجد ما يدعوني للشك بأن هناك أيَّ مرضٍ أو خللٍ في أعصابها، فإن كل فحوصاتها وحركاتها وردَّات فعلها الجسديَّة والذهنيَّة سليمة تمامًا.

فقالت تستثير أفكاره:

- وماذا عساه يكون؟

قال:

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

- كأن شيئًا يستيقظ بداخلها، أعتقد أني في طريقي للتشخيص الصحيح. فموعدها اليوم بعد ساعتين.

- وتحفظ موعدها؟ هذا لم يحدث منذ المريض العاشر لديك!

قالتها وهي في طريقها إلى الخارج.

فأتبعها قبل أن تغيب:

- لا تُدخِلي عليَّ أحدًا قبلها، أبدًا.

أجابته:

- طبعًا، لن أُدخِل عليك أحدًا، أتركك وهذا الكتاب وموسيقاك وسقف عيادتك، ستجد لها حلًّا بكل تأكيد.

وبعد ساعتين من غرقه في التأمُّل والتذكُّر والقراءة في الكتاب تارةً وفي الحاسوب تارةً أخرى، رن هاتف مكتبه وإذ بشذا تخبره أن رهف وصلت، فطلب إدخالها.

قالت رهف:

- مرحبًا يا دكتور، كيف حالك؟

أجابها:

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

- أنا بخير، وأنتِ كيف حالك؟ هل حدث أمرٌ جديد منذ لقائنا في جلستنا الأولى الأسبوع الماضي؟

قالت:

- لم يحدث جديد، لكني، وكما طلبت منِّي لم أحاول الكتابة ولم أمسك قلمًا، بصراحة لم يحدث ما استثار مشاعري وأشعل رغبتي بالكتابة على أي حال، أو أنا صرفت نفسي عن ذلك.

قال الطبيب:

- حسنًا فعلتِ، وأنا لن أخفيك سرًّا، منذ أن انتهينا من جلستنا الأولى وأنا في بحث ومراجعةٍ مستمرين لحالتك، حتى إني لجأت لأساتذتي وزملائي لكي أعرف إن كان قد مرَّ بأحدهم حالة أو عارض مثل الذي تمرِّين به، ولكن كلهم استغربوا توصيف الحالة وأكَّدوا لي أنها أول عهدهم بمثل هذا.

شعر أنه قد بالغ في استثارة قلقها دون انتباه فأردف:

- مع هذا، وبعد الاطلاع على اختباراتك المعملية لا أرى أن هناك أيَّ داعٍ للقلق أبدًا. أنت بخير جسديًّا ونفسيًّا وعقليًّا، لكننا سنعالج أو سندرس هذه الحالة معًا، ونوقفها قبل

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

أن تتفاقم أو تتسبب بأذى حقيقي قد لا نفهمه أو ندرك تأثيره اليوم.

دهشت رهف لما يقول وسألته:

- على الأقل أشعر أنك تصدِّقني، وليس كمَن سبقك من المختصِّين الذين استشرتهم، لذلك أثق بك وسنكمل معًا العلاج أو التشخيص على الأقل.

فقال شارحًا بهدوء:

- شكرًا على ثقتك مع إني لم أخبرك بعد إلا ما هو مُريب، ولكن أنا أعلم أني أشد زملائي ذكاءً.

قالها مازحًا وهو يتصنَّع الغرور وأكمل:

- لذلك سأخبرك بالخيط الرفيع الذي توصلت إليه وننطلق منه معًا.

قالت بابتسامةٍ لبقة:

- لقد أثرت فيَّ الشغف لحالتي، أصبحت كأني خارج نفسي وأرقب ما سيحل بي. أخبرني ما ذاك الخيط؟

قال:

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

- سأقارب الحالة مع علمي بأنها فقط مقاربة بعيدة ومبسَّطة جدًّا لحالاتك، ولكنِّي عدت إلى الأساسيَّات والبديهيَّات وانطلقت منها. هناك اضطراب اسمه ديسغرافيا، أو اضطراب عسر الكتابة، وهو أكثر ما يصيب الذكور، حيث يعجز الإنسان عن الكتابة بوضوح أو أن ينجح في التعبير عن نفسه، وهو يصيب القليل جدًّا من الراشدين وتتراوح درجاته حسب الحالات.

قالت رهف:

- هذا يعني أنَّ هناك مثلَ حالتي، فهذا قد يصف ما أمرُّ به، أليس كذلك؟

رد الطبيب:

- للأسف ليس تمامًا، متأكد أن ما لديك مختلفٌ بعض الشيء. أصحاب هذا الاضطراب يكتبون ما يدور في رأسهم ولكن إمَّا بغير دقَّة وإمَّا بعدم وضوح أو بأخطاء إملائية كثيرة، وإمَّا يعجزون عن الكتابة ويتجنَّبونها لتأثرهم بها، وإمَّا يكتبون أفكارًا مختلفة تمامًا ولكن بانسياب وبخطٍّ واضح ودون أخطاء إملائية تُذكَر وبالتحديد فيما يخص تجارب عميقة التأثير، فهذا أمرٌ مستجد تمامًا. على كل حال

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

لدينا هذا لننطلق منه في التشخيص، ولذلك لديَّ بعض الاستفسارات والاختبارات لنقوم بها.

قالت رهف:

- بكل تأكيد، تفضَّل.

فقال الطبيب:

- أعتقد أنكِ عندما تخرجين من حالة التأثُّر العاطفي الشديد تغوص هذه الأفكار في داخلك مجددًا، لذلك لا يمكنك قراءتها أو تذكُّرها. والآن هل أنت جاهزة لنعيد الكرَّة ونحاول من جديد؟

أومأت رهف بالموافقة وأمسكت القلم مسكة أخرى وعدلت الأوراق التي كان قد وضعها الطبيب تمهيدًا لموعدها.

فقال الطبيب:

- أريدك أن تعودي بذاكرتك إلى الوراء بشكلٍ أشد عمقًا من جلستنا الأولى، وتستحضري جرحًا أو ذكرى أو خيبة أمل كسرت فيك شيئًا من حب الحياة وأذهبت رونقها، لحظة تغيَّرت فيها الدنيا. عندما تصبحين في ذاك المكان، اكتبي رسالة إلى مَن تسبب بهذه الخيبة، وصُبِّي عليه غضبك قولي له كيف كانت ستصبح حياتك لو أن ذلك الإنسان لم

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

يمر بحياتك أو لو لم يفعل ما قد فعل. ولكني سوف أطلب منك أمرًا شديد الصعوبة هذه المرَّة. هل أنت مستعدَّة؟

رهف:

- مستعدَّة، أخبرني ما عليَّ أن أفعل؟

قام الطبيب من كرسيه وأحكم إغلاق الباب دون أن يقفله وعاد إلى كرسيه وقال:

- أريدك أن تكتبي ما يدور في رأسك كما هو، ولكني أسألك أيضًا أن تنطقي بصوت عالٍ ماذا تكتبين، في الوقت نفسه.

نظرت إليه رهف بدهشة وكأنه يطلب منها ما يعجزها، وقالت:

- أليس هذا صعبًا؟

الطبيب:

- في الحالات الطبيعية، هو أمرٌ طبيعي جدًّا. إن كلَّ مَن يكتب شيئًا ما يقرؤه إمَّا بداخله وإمَّا بصوتٍ خافت أو عالٍ، فهذا الأمر الطبيعي أصلًا. ولكني لا أنكر أن في حالتك لن يكون بهذه الانسيابية والطبيعية، ولكني أعتقد أن هذه التجربة ستكون بداية العلاج بإذن الله، لنُجرِّب.

عزيزي القارئ والقارئة، حدث في هذه العيادة مشهد أراه في رأسي ولا أدري إن كنت قادرًا أن أصفه تمام الوصف، لكني

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

سأحاول. لعل هذا مشهد بحاجة إلى مخرج سينمائي بارع حسَّاس وممثلة أشد براعة يخرجانه لكم لتقترب الصورة، لا لكاتب مبتدئ مثلي، ولكني سأحاول أن أصف ما حدث في العيادة.

أمسكت رهف القلم ووضعت رأسه فوق الورقة الملقاة على المكتب. بدأت ترتعش ويتعرَّق جبينها ويزداد جلدها اصفرارًا كمَن يواجه قدرًا أو ظالمًا أو حدثًا جللًا. أغمضتْ عينيها وما لبست ترتجف أناملها حول القلم وراحت تتذكَّر وتستحضر من ماضيها. فجأة فتحت عينيها على وسعهما وانهالت على الورقة بما اختلجت به عواطفها إثر تلك الذكرى. وحاولت أن تكتب، ولكن القلم علق في مكانه كأنه فرس جامح على ظهره خيَّال قاهر يلجمه غصبًا عنه. علق القلم وشفتاها معًا، كأنهما قد اتصلا معًا، كأنهما يتآمران ليقوما بثورة ضدها. لا ندري ما حدث داخل رهف في هذه اللحظة ولكنها بدت كأنها انقسمت، قسم هادئ راقٍ يتجلَّى في يدها التي تكتب بنعومة وسلاسة وقسم غاضب ينتزع بقسوة من أحشائها وكأنه مظلوم قرر الموت في طلب حقِّه ويتجلَّى في شفتيه الحمراوين الغاضبتين اللتين تصرخان من قلب خلجات وجدانها، وتزامن ما تكتب على الورقة مع ما تصرخ به من فمها:

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رهف تكتب بهدوء:

"لا أندم على أي ذكرى عشتها معك، سوف تبقى أنت أجمل ذكرياتي وصديقي. لعلّي اتَّهمتُك في سرِّي بالكذب والخداع، ولكن أنت أعلم منِّي بالمرأة وعدم قدرتها أن تتمتَّع بلحظتها وإفسادها لرغبتها الملحَّة بالتملُّك والزواج. إنك لم تخدعني قط، لقد صدقتَني الوعد، فأنت منذ بدأنا نتعلق ونتأمل ونحلم ونغرق ونغوص ونطفو، أيقظتني ونبَّهتني أننا لن نكون معًا. أقنعتني، وأنا في أوج اتخاذي بالحياة معك، أننا في نهاية المطاف سننفصل، وصدقتني القول وفعلنا. وكم أذكر أنك كنت تذكرني بهذه الحقيقة كلما خفت أنت أو كلما سنحت لك الفرصة أن تخاف عليَّ. لم تخدعني، أنا خدعت نفسي".

رهف تصرخ بأعلى صوتها:

"يا لك من مخادعٍ وكذَّاب، لماذا لم نتزوَّج؟ لم تعدني بهذا منذ البداية! حقًّا، هذا هو تبريرك لنفسك ولي؟ أما كانت الوعود تختبئ في كل كلمة عشق قُلتها؟ أما كانت كل قُبلة ودمعة وحلم عشتهم معي وحدي وعودًا بأنك لن ترحل؟ لقد استمتعت بتأليهي إيَّاك سنواتٍ، أما خطر ببالك أن التأليه لا يزول بكلمات نتجنَّب قولها؟ لقد وهبتك روحي وأيامي وآمالي وجسدي، أما علمت أن الهبة لا تسترد بالكلمات التي لم تنطق؟ لن أقول إنك دمَّرتني وأنا حطام نفسي، بل لم يبقَ منِّي أي شيء يذكر، لقد استبدلتني تمامًا، وما بقي منِّي بات حطامًا".

https://t.me/osn_osn

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن نفسه ولكنه يستشعر مذاقًا بسيطًا من حلاوة الانتصار، لكنه غير قادر على الاحتفال لشدَّة التعب والخوف، كأنه اعتاد الهزيمة منذ أن خُلق ولا يفهم ما يشعر اليوم من نشوة.

نظر إليها الطبيب وفي عينيه هو أيضًا ومضة جذَّابة من غرور المزهوِّ بذكائه وقال لها:

- أعتقد أننا توصلنا إلى الحل، من اليوم حتى الجلسة المقبلة واظبي على هذا التمرين ولنلتقي الأسبوع القادم.

حملت رهف نفسها إلى الباب المُغلق وعيناها غائبتان وقدماها بالكاد تتحركان ويداها مسدلتان وخرجت من باب العيادة بهدوء دون أن تنطق ببنت كلمة.

* * *

منذ قرابة سبعة عشر عامًا (القصة الثانية)

في أحد مختبرات كلية العلوم في إحدى جامعات بيروت العريقة، دخل شاب ممشوق القامة أشعث الشعر طويله يرتدي رداء المختبر الأبيض، على وجهه بسمة توحي بأنها دائمة لا تزول. كان هذا فصله الثاني كأستاذ مساعد وما زال فرحه الطفولي بهذا اللقب يشعُّ في وجهه لا يكاد يخفيه. ويصحب هذه السعادة شعوران متناقضان، سعادة الحصَّة الأولى حيث

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

إنه سيلتقي تلاميذ جددًا قد يُنشِئ مع بعضهم الصداقات كما حدث مع طلاب الفصل الأول، وتوتُّر الحصة الأولى مع طلاب جددٍ عليه أن يقنعهم بأنه رغم صغر سنِّه لديه من العلم ما لم يكن لديهم بعدُ.

ألقى على مَن سبقه من الطلاب تحية جماعية بصوت مرتفع، ثم وقف صامتًا يحمل دفتره بيديه الاثنتين وراح صوتُ جمعهم يخف تدريجيًّا حيث ينبِّه كلُّ تلميذ جارَهُ وساد صمتٌ مُريح. قاطع هو ذاك الصمت معرِّفًا نفسه قائلًا:

- اسمي مجد، وسوف أكون مساعدَ الأستاذ لهذا الصف أو المسؤول عن تجاربه العملية، حصَّة اليوم للتعارف فقط ولن يكون هناك أي تجربة، سوف نحدد لكل تلميذ مكانه ونسلِّمُه أدوات المختبر، رجاءً حافظوا عليها لنتسلَّمها منكم آخر الفصل.

كان هذا الجزء الجدِّي الذي يخفي فيه بعضًا من توتره، ثم مشى إلى أول محطة عند أول تلميذ وطلب من الباقين أن يخفضوا أصواتهم. دنا من التلميذ الأول؛ شاب قصير القامة بعض الشيء يرتدي نظارة واسعة ويضع قلمين في جيب رداء المختبر. قال مع بسمةٍ تُلطف السؤال:

- ما اسمك يا صاحبي؟

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

فأجابه التلميذ وأتم مجد هذا مع أول أربعة تلاميذ في الصف الأول.

انتقل إلى الصف الثاني، صبيَّة تفوح منها رائحة أخَّاذة، دقيقة الترتيب، مصفوفة الشعر، يبدو عليها الذكاء الحاد والثقة بالنفس، مع أنها لم تُرزق من الجمال ما قد يسهِّل حياة الإنسان. سألها بصوت أنيق منخفض يتلاءم مع مظهرها:

- ما اسمك يا عزيزتي؟

فأجابته:

!

- اسمي نجوى.

سلَّمَها أدواتها وأرشدها إلى بعض الأمور التي عليها أن تُحضِّرها قبل الحصة الثانية. وانتقل إلى التلميذة التي بجانبها وهو ينظر إلى لائحة الأسماء بين يديه وسألها عن اسمها.

فأجابته:

- رهف.

امتزجت نعومة حرف الهاء في اسمها مع رقَّة صوتها. رفع مجد ناظريه إليها وإذ به يرى شابَّة شقراء تجمَّع حسنُ الدنيا في وجنتيها. علقت عيناه على وجهها كأنهما عصفورين علقا في مصيدة. عينان مضيئتان فيهما حياة تشع، لونهما غير

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

محدد يتراوح بين العسلي والبني والزيتي، جلد وجهها أرق من ماء البحيرات التي ترى على سطحها تفاصيل السماء، لونها مزيج من البياض المشدود فيه حمرة ممتدَّة أخَّاذة. لعلَّها لم تكن بهذا الجمال، ولكنه بهذا الجمال رآها.

شعر بأنه بالغ في النظر إلى وجهها، ولو تُرك الأمر له، ما رفع عينيه عن تفاصيلها. أحسَّ أن في زوايا شفتيها بسمةً اعتادتها عندما تُصادف ردَّات فعل كردة فعل مجد لجمالها. فأسرع بوضع إشارة بجانب اسمها تثبت حضورها، وهو يدرك أنها لا تُنسى أبدًا وتُفتقد في الثانية التي تغيب بها لشدة جمالها ورقتها. سلَّمها أدواتها وخرجت مع صديقتها نجوى وبقيت صورة وجهها في عينيه وخياله وأتم إعطاء باقي الطلاب ما يلزمهم ولكن بغيابٍ ذهنيٍّ تام.

مرَّ ذاك الفصل عليه من انتظار إلى انتظار وهو يتحيَّن موعد الحصَّة القادمة ليراها. وبالطبع يبالغ الاهتمام بها دون وعيٍ منه، كانت تأخذه قدماه وعيناه ويدور حولها كأن لم يكن في الدنيا أو في الحصَّة غيرها، ويبقى طيفها ملازمًا له بين الحصَّتين. ومع هذا فقد حافظ على صورته كمساعد أستاذ ولم يتمادَ بإظهار أيٍّ من تلك العوارض خارج نطاق ما تسمح به الأعراف بحكم طبيعة العلاقة المحدودة جدًّا بين أستاذ وتلميذة.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

بعد نحو أسبوعين على انتهاء الفصل، مساء يوم جمعة دقَّت ساعة الجامعة ست دقات معلنةً أنها الساعة السادسة مساء، أسدل الهدوء ستاره على حرم الجامعة وانتشر الملل في أرجائها الظاهرة والخفية، حيث هجرها معظم طلابها إلى منازل أبويهم كما يفعلون مع نهاية كل أسبوع، ليعودوا مع ملل مغيب يوم الأحد القادم. كان مجد خارجًا من إحدى بوابات الجامعة متوجِّهًا إلى سيارته وإذ به يرى رهف تقف بجانب حقيبة سفر رمادية اللون وتحمل حقيبة يد النساء الكبيرة، وقد لفت حول إحدى حمَّالاتها كنزة رقيقة. تلاقت أعينهما فتبسَّما، فهما شبه أصدقاء ومشى نحوها وقلبه يخفق، دون أن يدري أن قلبها يخفق كذلك.

وصل إليها وسألها عن حالها وبعض الأسئلة عن نتائج الفصل الفائت، وفجأة سألها عن وجهتها فأجابته أنها متوجِّهة إلى بيتها في إحدى أنأى مدن لبنان عن بيروت، فلقد اشتاقت لأمها وأخيها. وما كان منه إلا أن اخترع في لحظتها مصادفةً أدَّت في النهاية لأن تكون ساعتا الطريق بين الجامعة في بيروت وبين بيت أبوَيْ رهف بداية قصَّة عشق لا تنتهي.

قد تسمح الحياة لبعضنا بالوقوع فيما يُسمِّيه حالة الحب أكثر من مرة، ويدور في رؤوس هؤلاء وأحاديثهم سؤالٌ على مر سنواتهم، أي الحب أبقى؟ أي حب لا يلغيه الحب الذي يليه

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

أو يعدِّل في تسميته أو رؤيته؟ فنقول بجرأة أو نكران، لم يكن حبًّا، مع أنَّا حين نكون تحت تأثير سحره لا نقبل إلا بأسمى مُسمَّيات الحب الأبدي من غرام ووله وعشق وهيام وتيم وغيرها مما تحويه كل لغات الدنيا من كلمات هي أقرب إلى محاولات لوصف هذا الشعور الذي لا يوصف. من هؤلاء من يقول إن أكثر الحب دوامًا هو الحب الأول مهما تنقَّلت أفئدتنا، ومنهم من يقول إنه الحب الذي تحوَّل إلى عِشرة طويلة، ومنهم من يقول إنه الحب الذي بقيَ الحرمان ملازمًا له، ومنهم مَن يقول إن أبقاه هو الذي يتكلل بالزواج، منهم مَن يقول هو الذي يستمر بالتجدد والتغيُّر، ومنهم على كثرة تجارب الحب قد نسيَ أي الحب أبقى.

أليست كل الحالات إلى زوال أو تغيُّر؟ لعل كذلك كل الحب إلى زوال وتغيُّر، وأبقى الحب ذلك الذي يصنع في أنفسنا ما يعرِّفها أو يهبها هويَّة تشكِّلها، في أي وقت أو ظرف أتى وتحت أي اسمٍ تستَّر. أبقى الحب الذي يبني داخل كل حبيبٍ أجزاءً من شخص حبيبه وتتراكم وحدات شخصيتهما لتتناغم، فيصبحان كجدار تداخلت وحداته. أبقى الحب هو الذي وإن زال فإنه يترك هيكلًا لم يكن موجودًا قبله، وهذا الهيكل هو نحن الجدد إلى أن تفترق أرواحنا وأجسادنا.

هكذا كانت علاقة مجد ورهف طوال سنوات الجامعة الثلاث المُتبقية. من لبنة كانا يعتقدانها شخصية مُكتملة صقلَ كلٌّ

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

واحد منهما الآخر دون أن يشعر. مع كل ليلة من هذه السنوات كانت تجول المعرفة بينهما كأنها ماء ينساب من أعلى إلى أسفلَ حتى تتوازن فيهما. كأن أيديهما قد امتدَّت إلى أعماقهما تُصلح ما أفسدته السنين القليلة الماضية وتُرتِّب الأساس لبنيان أقوى وأشد.

بعض الأيام في حياتنا أشبه بالفخ أو الخدعة أو الطعم، حيث إننا نعمل من أجلها لسنوات طويلة وننتظرها إثر كل معاناة على أنها الأمل المرجو لبهرجها المشع حين نراها في حياة الآخرين أو عندما نتوهَّم أنها نهاية ألم ما أو بداية حياة ما لا أتكلَّم عن يوم الزفاف، بل عن يوم أشبه به وهو يوم التخرُّج من الجامعة. وهو إن صحَّ التعبير يوم زفافٍ على الدنيا التي هي تمامًا كالعريس أو العروس. لا يدري أحدٌ منَّا كيف وأين تستقر به دنياه وكيف ستعامله وأي منزلة ستنزله وإن كانت خيِّرة أم شريرة. وأتى ذلك اليوم الخدعة على مجد ورهف فتحضَّرا له مع مَن كانا يطلقان عليهم أصدقاء العمر. واحتفلا بالانتظار لساعات قبل أن ينطق رئيس الجامعة اسمهما ويصفِّق لذلك بعض الأصدقاء وقد تنساب دمعة من عين أم أو أب أو أخت لذلك الإنجاز.

وسرعان ما امتدَّت براثن الدنيا الناعمة كأيادي أخطبوط وأحكمت القبضة على كلٍّ منهما وراحت برقَّة وفرص جميلة

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

لا ترفض تباعُدًا بينهما. بعد طول انتظار حصل مجد على منحة ليكمل الدكتوراه في إحدى أهم جامعات أمريكا، في حين حصلت رهف على عمل مريح راقٍ في شركة أحد أصدقاء والدها السابقين.

واتفقا معًا على أن يذهب مجد ليكمل دراسته وتنتظره. لا أدري مَن أقنعهما أن الحب أقوى من المسافة ولا أدري إن كانا قد اقتنعا بذلك حقًّا. ولكنَّ لكل كذبة نخدع بها أنفسنا بِضْعًا من الحيل البسيطة التي تبدو حقيقية نستر بها الحقيقة. وكانت من الحيل التي اعتمداها أن غربة اليوم لم تعد غربة مع هذه التكنولوجيات وطرق التواصل الدائم بالمحادثات والصوت والصورة، وحيلة أن السفر مرة أو اثنتين كل عام، والحيلة الكبرى أنها سنوات وتنقضي وإلى اللقاء الدائم في يوم الخدعة الأكبر، يوم زفافهما.

في اللحظة التي غاب فيها ظهر مجد خلف شرطي المطار في آخر نقطة تفتيش، انتقلا من الحياة معًا إلى انتظار الحياة معًا، وشتَّان ما بين هذه وتلك. انفصل تلاصق روحيْهما كشقَّيْ سحَّابِ رداء امرأة طويل تكشف ظهرها البراق وتتعرَّى لرجل لا يطيق الانتظار. وكأن تلك المرأة مومس تستمتع بمعاناة الرغبة إليها ولا ينال قلبها أحدٌ مهما عَلَا شأنه أو صغر، كأن تلك المرأة هي الدنيا.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

كان تواصلهما في الشهور الأولى مبالغًا فيه وكان ذلك طبيعيًّا إذ لم يكن لكل واحد منهما حياة منفصلة، بعد. بعد ذلك تحول تواصلهما إلى ما يشبه مقاومة للواقع وإصرارًا على إشعال ما قدره أن ينطفئ. ولكن لسببٍ ما، إن انطفاء شعور المرأة يأخذ زمن أطول من انطفاء شعور الرجل، وفي حالة مجد كان ذلك صحيحًا على الأقل، إذ إنه مَن انغمس في حياة جديدة تمامًا وراح يستكشف معالمها وأخذه ولع وفضول رجل العلم الذي فيه يزداد شغفًا بما يدور حوله في بلاد وحضارات ونساء جديدة. وبذلك فإن حُبَّه لرهف لم يعد عشقًا. وبدأت تزداد فجوات الزمن والتفاصيل بينهما، فما عاد يسألها عمَّا تلبس وما تقرأ ومع مَن تخرج وما عادت هي، رغم رغبتها، تلومه على قلة الحديث والتواصل معها، ووضعت نفسها في حالة الانتظار يأتي كما وعد.

بعد عامٍ أتى موعد الزيارة الأولى، كأن الغربة أرسل بديلًا عن ذلك الحبيب المجنون الذي كان يحملها بناظريه. كأن التواصل بينهما كان قد ساهم في تخفيف الشوق وخلط المشاعر فلا هو شوق الحرمان التام الذي يعظم مع الزمن، ولا هو لذَّة الوجود الحقيقي في القلب والروح والجسد وتفاصيل النهار والليل. لكنها وإن أدركت هذا بعقلها إلَّا أن قلبها لم يكن بعد مستعدًّا لتلك الحقيقة إذ إن عشقها ما زال عشقًا.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

مضى شهر الإجازة يومًا بعد يوم ولكنه بعد أسبوعه الأول بدا في حالة انتظار لأن يعود إلى حياته الجديدة. كانت تمد يدها إلى جوف إحساسه لتهزه بالذكريات والآمال المنصرمة ولكنه كان يتهرَّب منها لإضراب مشاعرها. فقد أحسَّت أنها خسرت استثمار روحها لأعوام مضت وأعوام كان يفترض أن تأتي. وأصبح تصديقها لهذه الحقيقة يزداد يومًا بعد يومٍ وصارت على يقين أنها معركة خاسرة. واستيقظت كرامتها، التي عادةً ما يُسكتها عشقُ العاشقين، وأخذت بزمام أمور البوح وطلب الاهتمام واللوم بدلع أو بجد وأوقفت كل هذه المحاولات، وبدأ الصمت الذي نغطيه بالتفهُّم والظروف وما نسمِّيها أمورًا طبيعية.

إن في جوف كلِّ صمتٍ ألمًا ولكنْ صمتُ العاشق عن حقِّه بالتعبير بعشقه يشقُّ الروحَ ويُدمِي القلبَ. إنه صمتٌ ممزوج بالوحدة عمَّن كان داخل النفس. وعاشت آخر أيام عطلته كممثلة لا تجيد التمثيل إطلاقًا وتغاضى هو عن سؤالها البادي واضحًا في صفرة وجنتيها، التي كان الاحمرار لا يفارقها في حضرة حبيبها الذي ذهب ولم يعد.

قبل موعد سفره بيومين، استجمع مجد جرأته وكتب لها رسالة طويلة ملأى بالتفاصيل والكلام العقلاني الواضح الذي لا يمكن أن يخترقه عقل عاشق مشوَّش. لم تقرأ هي من تلك

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

الرسالة التي صاغها بإتقان إلا أن الظروف تحول بينهما وأنه يجب عليهما أن ينفصلا. بدأ ينساب من مسامِ جلدها عرق الخوف والحزن وصار جوفها يرتجف وتصاعد قلبها إلى حلقها وما عادت تدرك مكانها من دنياها، مع أنها ما زالت في سريرها مع ذلك الهاتف اللعين، وأحسَّت كأنها تقف عارية وسط عاصفة ثلجية تضرب جسدها الحار ولا تُطفئ ناره.

أمسكت هاتفها وهي تصارع، كأن كرامتها وغضبها يتعاركان ويقتل أحدهما الآخر بلا منتصر. وأرسلت رسالة نصية كتبت فيها:

«لا تقلق يا حبيبي، أنا لا ألومك أبدًا. علينا أن نكون عقلانيين فإن الدنيا والظروف حالت دون أن نكون معًا. أتمنَّى لك حياة سعيدة أينما كنت ومع مَن كنت».

أغلقت هاتفها وأدارت وجهها في وسادتها وراحت تصرخ فيها لتكتم صوتها حتى لا تسمع أُمُّها وأخوها في الخارجِ صراخَها، كانت تقول:

- لقد خذلتني، من كلِّ قلبي أتمنَّى أن يأتيك هذا الألم مضاعفًا ملايين المرات.

* * *

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

منذ أسبوع (الجلسة الثالثة)

كانت السنة في أواخر شهرها التاسع، وبدأت الألوان بالاستئذان للرحيل. وبدأ النسيم يُستبدل به الرياح التي تهب من حينٍ لآخر، وكأنها عامل نظافة يلتقط الورق وبقايا حفلات الصيف وخطاياها عن أرصفة الشوارع والمقاهي وشواطئ البحار والمسابح والشاليهات والنوادي الليلية والمصايف الجبليَّة. وبدأت الشمس تحتجب خلف السحب الرمادية الحديثة الولادة، وبدأت كآبة الخريف وبداية المدارس ورحيل المغتربين وغيرها من مظاهر الكآبة تتجلَّى على كل الوجوه، ما عدا وجه الطبيب النفسي اليوم بالذات. فهو ينتظر جلسة رهف الثالثة بفارغ الصبر. عندما ينتظر أحدُنا أمرًا يؤنسه فإن من المستحيل أن تمحو سماحة بسمته أي شيْء خارجيٍّ، لا شمس تغيب ولا ألوان تختفي ولا موسيقى حزينة ولا خريف ولا غيره. كل هذا الوصف لا يكاد يتخطَّى الملاحظة الحسية، ولكنْ داخل المنتظر ألوان ونور ونسيم وشواطئ وحفلات لا تنتهي، وهكذا كانت حالة طبيبنا المنتظر.

دخل عيادته وفي خطواته رقصةٌ داخل الحذاء لا تكاد تُرى قال لشذا:

- صباح الخير، كيف حالك أيتها الجميلة؟

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

ولكن الخريف قد اجتاح وجه شذا فجاوبته ببرود:

- صباح النور يا دكتور، أحضِّر لك فنجان الشوكولاتة الساخنة؟

ابتسم دون أن يُريها وتمتم دون أن تسمعه:

- يبدو أننا في أيام المبالغة.

مِن عِشرته الطويلة بها سنة بعد سنة صار في داخله عدَّادٌ لا شعوري بحالة شذا. فقد كان هناك ثلاثة أيام تقريبًا كل شهر تُشهِر بها عداوتها وتتعاطف إلى أبعد الحدود وتغضب أكثر من باقي أيام الشهر، وتتوتَّر وتوتِّر العيادة، وكان يسمِّيها أيام المبالغة ويبتسم كصديق راقٍ. وكانت أيام المبالغة هذه تظهر في تفاصيل دقيقة بسيطة هو فقط مَن يقدر على رصدها، واليوم رصدها من الضجيج البسيط وهي تحضِّر فنجان الشوكولاتة، فاليوم الضجيجُ أعلى من باقي أيام الشهر الفائت.

كان لا يحب القهوة، ويراها للكبار فقط، فلقد جرَّبها أول مرة في أواخر طفولته ليشعر أنه قد كَبُر، ولكنه لم يحب طعم مرارتها ولم يحب شعور الكبر. وكان ينتقدها بسخرية طفولية، ويقول:

- هي للكبار ومُدَّعِي الثقافة والنوستالجيا أو للمتوهِّمين الذين لا يستيقظون دونها.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

هكذا كان بالفعل، يصرُّ على أن يُبقي أجزاء من الطفولة يحارب بها مرور الزمن وتغيُّر الصحة وانطفاء الشغف. وهذا ما أعادته رهف بحالتها إليه، شغف جديد لحل معضلتها وتفكيك حالتها، ولكن حتى إن كنت طبيبًا نفسيًّا، أو عالِمًا، أو أستاذًا أو مفكِّرًا أو مغنِّيًا أو موظفًا أو وزيرًا أو إنسانًا عاديًّا (ككل الذين سبقوا)، فإن العقل نفسه، يصعب أن يضع الشغف في موقع مصدره الحقيقي فقط، بل يذوب وينساب إلى مناطق أخرى، وها هو ذا طبيبنا اليوم وقد انساب شغفه من حالة رهف إلى رهف، فوجد نفسه مبتسمًا في الخريف، وراقصًا داخل حذائه، ومنتظرًا موعدها.

لكن أخلاقيات المهنة تحجب عنه هذا الشغف، فقرر أن يُبقيه لنفسه فقط، أو قرر أن يعالجها بسرعة فائقة تمامًا، لعلَّ وعسى. ودق باب غرفته وأدخلت شذا عليه رهف.

بدت على وجهها الرقيق ملامح الراحة والحرية، فأدرك من فوره أن التجربة قد نجحت. قالت مقاطعة كل احتمال يدور برأسه مع نظرته الطويلة إليها:

- أنت عبقري يا دكتور، لا يسعني إلَّا أن أقول لك شكرًا جزيلًا والحمد لله على وجودك.

الطبيب:

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

- أولًا، أهلًا وسهلًا، ثانيًا، اجلسي والتقطي أنفاسك، ثالثًا، لا داعيَ للشكر، أخبريني بالتفصيل ما حدث منذ لقائنا السابق حتى اليوم.

جلست على أحد الكرسيين المقابلين لمكتبه، على مسافة وصول العطر الذي وضعته رهف على عنقها وكلما نبض وريدها تصاعد العطر وتسلل من أنف الطبيب إلى قلبه دون أن يشعر بأنه يشتم هذا العطر.

قالت رهف:

- لقد اتَّبعت تعليماتك تمامًا كأنها حَبَّة دواء، صرتُ أعلق باب غرفتي على نفسي، وأمسك بقلم ودفتر وأستذكر ما أملت به وتمنيته وما ألمني وخذلني. وأروح أخطُّ ما يدور في وجداني على الورقة وأصرخ بما أعتقد أني أكتب. وبدأت شيئًا فشيئًا أشعر بشعور غريب لا أذكر أني قد شعرته بعد وفاة أبي. شعور يشبه الحرية، تلك التي يصفها الناس ولم أكن أفهم ما يقصدون، واليوم أرى أنهم ما زالوا يقولون المصطلح نفسه لكنهم أنفسهم لا يفهمون ما يقولون.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

بقي الطبيب ينظر إليها كرسَّام أعجبته لوحة خطَّها بيده لامرأة جميلة، ولا يدري إن كان جمال اللوحة ما يثيره أم جمال المرأة التي رسمها.

أكملت رهف بشغفها المُشعِّ:

- في كل مرة كنت أعيد هذه التجربة كان يزداد ذلك الإحساس، وكلما ازداد ذلك الإحساس بدأت أشعر بالتناغم بين ما أقول وأصرخ وبين ما أكتب على الورقة. حتى إنني يوم أمس وجدتني أقول ما أكتب بانسياب وتناغم تام، إنك عبقري بالفعل، أعتقد أنك لم تشفني من هذا العارض الغريب فقط، ولكنك حررتني لأعيش، لأغفر، لأواجه الذكريات، لأرفض وأرضى، لقد حررتني لأختار، لا أعتقد أنك سوف تفهم مدى وصدى ما فعلت يا دكتور.

قاطعها الطبيب بصوت فصل ورقةٍ من دفتره وسحبِ قلمٍ من فنجان الشوكولاتة الساخنة الفارغ المملوء بالأقلام وقال:

- هل نجرِّب معًا للمرة الأخيرة؟

لم يكن سؤالًا بقدر ما كان أمرًا بلُطف، وأتبع شارحًا:

- ولكن هذه المرة يمكنك أن تكتبي فقط دون أن تقولي أو تصرخي ما تكتبين. ولعل من كثرة تمرينك لن يكون

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

من السهل أن تستحضري ذكرى، لكني سأعطيكِ طرفَ الخيط. ابدئي من حيث ذكرتِ أنك ودعتِ شعور الحرية.

ما إن أنهى الطبيب جملته حتى تذكَّرت والدها وبدأت دمعاتها تنساب بغزارة وصمت من عينيها. أغمضتهما ومسكت القلم وراحت تكتب بصمت ودموع تنهمر بهدوء:

«لماذا لم تتركيني أخبره يا جدتي؟ كان لدي فرصة أخيرة لأقول له، فلقد كان صامتًا لا يستطيع الهروب من كلماتي، ولا عواطفي ولا دموعي ولا أن يميل بعينيه عنِّي. كم كرهتك ذلك اليوم يا جدَّتي، وكم كرهتك لسنوات بعدها. لعلك لا تدرين ماذا فعلتِ، فقد كان كلُّ ما فعلتِه يبدو خيرًا. بنيَّة صافية قد وضعتِني في أسر وسجن أسود. كيف تطلبين قوَّة بهذه الدرجة من طفلة لم تبلغ بعد تسعَ سنواتٍ؟ كيف تطلبين مني أن أسكت لأن أُمِّي مريضة ولن تحتمل أن تراني أكلِّم أبي للمرة الأخيرة؟ كيف تُحمليننني مسؤولية أُمِّي وأخي يوم فقد السند الوحيد؟ كنت فقط أريد أن أقول له إني سأشتاق إليه، وإني غاضبة من قسوته المصطنعة. لا أدري إن كنت سأعرف أن أقول ما أشعر وما أفهم اليوم ولم أكن أفهم يومها. كنت أريد أن أخبره أنه مُخطئ، وأنه لم يخدعني بقوته فقد كان مع كل جبروته وقسوته وقصور تعبيره رقيقًا ضعيفًا حبيبًا مُحبًّا... يا لك من قاسية!».

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

ولمَّا رأى زيادة غزارة دمعها وتسارُع قطراته أوفقها قائلًا:

- تمام يا رهف، أيمكنني أن آخذ الورقة الآن؟

ناولته الورقة وأعادت القلم إلى الفنجان بهدوء، أخذها منها بحماسة شديدة، نظر إليها وراح يقرأ:

«لماذا لم تتركيني أخبره يا جدتي؟ كان لدي فرصة أخيرة لأقول له، فلقد كان صامتًا لا يستطيع الهروب من كلماتي، ولا عواطفي ولا دموعي ولا أن يميل بعينيه عنِّي. كم كرهتك ذلك اليوم يا جدَّتي، وكم كرهتك لسنوات بعدها. لعلك لا تدرين ماذا فعلتِ، فقد كان كلُّ ما فعلتِه خيرًا. بنيَّة صافية قد وضعتِني في أسر وسجن أسود. كيف تطلبين قوَّة بهذه الدرجة من طفلة لم تبلغ بعد تسعَ سنواتٍ؟ كيف تطلبين مني أن أسكت لأن أُمِّي مريضة ولن تحتمل أن تراني أكلِّم أبي للمرة الأخيرة؟ كيف تُحمليننني مسؤولية أُمِّي وأخي يوم فقد السند الوحيد؟ كنت فقط أريد أن أقول له إني سأشتاق إليه، وإني غاضبة من قسوته المصطنعة. لا أدري إن كنت سأعرف أن أقول ما أشعر وما أفهم اليوم ولم أكن أفهم يومها. كنت أريد أن أخبره أنه مُخطئ، وأنه لم يخدعني بقوته فقد كان مع كل جبروته وقسوته وقصور تعبيره رقيقًا ضعيفًا حبيبًا مُحبًّا... يا لك من قاسية!».

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

أنهى القراءة ونظر إليها وهو شبه موقن بالنتيجة، حيث إنه قد سمع صوت بكائها واستشعر بسمتها.

سألها بعد أن مسحت دمعاتها:

- هل هذا ما كتبت؟

قالت رهف:

- نعم، هذا ما كتبت.

تنهَّد الطبيب وقال:

- حمدًا لله على السلامة، الآن يمكننا القول إن هذا العارض قد انتهى. ولكن سوف أراك للمرة الأخيرة في العيادة الأسبوع القادم، ليطمئن قلبي.

قال هذه الجُمَل بدراية شديدة وكلها رسائل مُبطنة. أولها ما عدتِ مريضتي، ثانيها لست مستعدًّا للفراق، ثالثها لعلَّ ألقاك خارج العيادة، ورابعها «قلبي».

ابتسمت رهف مرحبة بكل الرسائل التي فهمتها أو ما فهمتها من الطبيب، سلَّمت عليه وقالت:

- إن شاء الله، أراك الأسبوع القادم.

* * *

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

منذ قرابة واحد وثلاثين عامًا (القصة الثالثة)

فجر يوم الإثنين، وُلدَ صبيٌّ لعائلة من الطبقة الوسطى فوجد اسمه وأباه وأُمَّه وأُختَه بانتظاره. كان اسمه «سند» في محاولة من أبويه أن يستبقا الأقدار ويلعبان دورها، فأسمياه بمهمَّته أو هويَّته أو مستقبله. ولكن الأقدار غالبًا ما يكون لديها ترتيب آخر لا نفهمه.

كان عامُ سند الأوَّل جميلًا هادئًا بين أحضان أُمِّه وأبيه وضحكات أخته الكبيرة رهف، التي كانت ما تجاوزت أربع سنوات. لم تشعر رهف بغيرة تذكر كالأطفال الذين يُولد لهم إخوة وهم في أوج دلالهم فيشعرون بفقدان الاهتمام والقيمة الذاتية. كانت رهف كالملاك رغم انشغال أُمِّها بالمولود الجديد لعلَّ ذلك كان بسبب أبيها. فإن حُبَّه ومداعبته لرهف لم تقِل بل تضاعفتْ. كانت مولودَه الأول، وهديَّته من الدنيا بعد عناء. فلقد تغيَّر منذ أن نظر إلى عينيها.

كانت اللحظة الأولى كفيلة أن تقنعه بما فشلت زوجته أن تقنعه به لأعوام قبل الزواج وبعده، أقنعته بالوفاء وبأن المراحل تنقضي وتنتهي، وبأن الملل وإن تسلل لعشقٍ فإنه لا يقتله. أقنعته كالسحر أن الأنا يمكن أن تذوب وتتمحور حول شخص آخر، فأصبح كالشهيد الذي لا يبالي إن ذابت حياته في سبيل ما يعتقد، ولقد اعتقد بعينيها بشكل مبالغ فيه. ومن شدَّة حُبِّه

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

لها وخوفه عليها قرر أن يلعب دورًا غير دوره. قرر أن يحميها أو يأتي لها بمَن يحميها طوال حياتها. ولذلك أقنع زوجته بأن ينجبا ولدًا آخر ويُسمَّياه سند ليكون لها «سند» طوال حياتها، هذا كان جُلَّ ما يفكِّر فيه الأب والدافع الوحيد. وافقت الأم ولكن لأسباب كثيرة، هذا فقط واحد منها.

لعلَّ الأقدار تغضب إن حاول أحدٌ أن يسرق دورها، فبعد أن أتم سند عامه الأوَّل وبضعةً من أشهر عامه الثاني حتى بدأت تلحظ عليه الأم علامات ما كانت تلاحظها على رهف حين كانت في سنِّه. بدأت ترى عينيه غائبتين لا تتصلان ولا تتواصلان مع المُحيط. أمعنت في مراقبة سلوكه مع محيطه فوجدت منه أمورًا غريبة عنها بعض الشيء. قررت أخذه إلى طبيب وبعد أَخْذ ورد وزيارات إلى مراكز ومختصِّين تم تشخيص سند بالتوحُّد الحاد.

وصار سند يتطلَّب الكثير من الاعتناء الخاص المتواصل فهو غير قادر أن يتم أيًّا من مهام الحياة دون معاونة أو مراقبة، وبحسب تشخيص أهل الاختصاص فإنه سيتطلَّب هذه العناية والمرافقة اللصيقة طوال حياته.

بدأت روح بيت رهف تتغيَّر بسبب الجهد أو بسبب الضجيج أو بسبب عدم رضى الأب. ومهما حاولت الأم أن تخفي عناء الاهتمام بسند ولكن عبث، حتى هو كان يدرك بكل كيانه أنها

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

لا يجب أن تحتمل هذا وحدها وكان يفهم أن هذا قدر الله ولكن الرفض غالبًا ما لا يكون بالعقول بل بالقلوب. وجزء كبير من رفض الأب كان مرتبطًا بالمبالغ التي تترتَّب مع كل جلسة علاج كان يدفعها بدل أن يذخرها لمستقبل رهف أو لرحلته الصيفية معها ومع أُمِّها كما كان يفعل قبل تشخيص سند.

وفي يوم من الأيام رأى الأب رهف جالسة قرب أخيها تراقبه وتلاعبه ببراءة. ناداها فمشت إليه وكانت تشعر أنه قد اختلف لكنها لم تكن لتفهم أيًّا من الأسباب. أمسك يدها بيديه بحنان أبوي ونظر إلى عينيها وقال كأنه يتكلَّم مع إنسان من مثل عمره وقال:

- سامحيني يا ابنتي، كان كل همِّي أن آتي إليك بسند يكون معك ويعينك على الحياة. كنت أخشى إن ذهبت أنا فلن يكون لك رجل يحميك. كنت أخشى أنك إن تزوجت رجلًا سيئًا سيكون لك ظهرًا لا يلتوي. كنت أخشى أنك إن مرضت لن تجدي أخًا أو أختًا بجانبك. ولكني أتيتك بمَن عليكِ أن تسنديه طوال حياتك، ومَن سيصعِّب عليك حياتك بدل أن يسهِّلها، سيصعب عليك الخروج دون ترتيب، ويصعب عليك السفر دون ترتيب، وتصعب عليك الدنيا دون ترتيب، سامحيني يا حبيبتي، سامحيني.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

نظرت إليه رهف وإلى دمعاته المتدفقة دون أن تفهم كلمة واحدة، فهي لا تعرف حتى عن مَن يتكلَّم ولكنها تعرف البكاء فاقتربت من أبيها أكثر وعانقته بيديها القصيرة التي لا تلتف لفَّة كاملة حول عنقه وقالت بصوت رقيق كأنها مُلهمة:

- أنا أحب سند كثيرًا، هو رفيقي الطاهر الذي سيرافقني طوال حياتي. لماذا تبكي يا أبي، هل أنت طفل؟

انتبه الأب من كلمتها فابتسم ومسح دمعاته. وجاوبها كأنه لم يفهم سؤالها أيضًا، أو لم يفهم أنه فعلًا سؤال فافترض ما تعنيه رهف وقال:

- معك حقٌّ يا ابنتي، فالرجال لا تبكي كالأطفال.

أحسَّت رهف بشعورٍ غريبٍ من الارتباط والأمان والقيمه عندما رأت دموع أبيها. أحسَّت أنها سمعته وأنه سمعها على الحقيقة. كان شعورًا متلوّن فيه من الحزن والفرح والقوَّة والعجز ما يصعب على رهف أن تفهمه، ويصعب علينا جميعًا بالحقيقة.

كأن كلماتها عن سند أثلجت قلبه وغسلته من الرفض والنقمة والذنب واللوم. ومنذ ذلك الحديث باتت حياتهم تأخذ منحى آخر، إذ إن الأب بدأ يساعد في متطلبات سند ولا يغضب في أثناء نوباته كما كان يغضب سابقًا، ويتأفف في وجه زوجته

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

كأنها هي المذنبة أو المقصِّرة فتتجنبه خوفًا من غضبه. أصبح يتناوب مع زوجته على أخذه لجلساته عند المختصين، يلاعبه ويضحك معه ومع رهف. وبالطبع أصبح يزيد من جهده في العمل ويزداد ابتكارًا ليغطي النفقات برضا وحب.

مرَّت أربعة أعوام تقريبًا على هذه الحال، وفي يوم من أيام الشتاء دخلت الناظرة على صف رهف، بعد استراحة الغداء وقاطعةً مُعلِّمة الرياضيات وقالت ببسمة قاتمة:

- رهف، تعالي يا حبيبتي أريد أن أكلِّمك.

نظرت رهف إلى صديقتها نجوى وكأنها تستنجد بها من هول المجهول. وسألت بصوت خائف:

- هل أحضر حقيبتي معي؟

ردَّت نجوى قبل أن ترد الناظرة:

- لا عليك سآخذها أنا معي وأوصِّلها إلى بيتكم.

مشت في أروقة المدرسة بجانب الناظرة فوجدت خالها ينتظرها هناك ولونه مسودٌّ قاتم ولا يكاد يحبس دمعاته من هول الصدمة وصعوبة المهمَّة التي كلفوه بها.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

ما إن دخلت مكتب الناظرة حتى غمرها بنظراته وغصَّت أنفاسه وهي هادئة لا تعي ماذا يحصل. مشت مع خالها إلى السيارة حتى كسر الصمت وقال لها:

- يا حبيبتي، لقد تعرَّض والدك لحادث ونحن ذاهبان إلى المستشفى لتطمئنِّي عليه ويراكِ.

أوصل الرسالة بنعومة قصوى مقارنة بحقيقة الحدث، هذا ما أوصته به أُمُّه، جدَّة رهف لأمِّها. وما كان مِن رهف إلَّا أن ازدادت صمتًا وانتظارًا حتى المستشفى. وما إن وصلا حتى أمسكت بيد خالها وراحت تسحبه بقوَّة وسرعة ليوصلها إلى الغرفة التي فيها أبوها، وهو يقاومها بلطف ويبكي.

وبعد عناء واستعجال وصلت إلى غرفة العناية الفائقة فوجدت جدتها وعمها واقفيْن حول سرير العناية الفائقة، وأُمها شبه غائبة في كرسي بزاوية الغرفة وقد أنهكها البكاء وأقعدتها الصدمة. بالنسبة للأم، فقد أدركت أن زوجها يلتقط أنفاسه الأخيرة، فحادث السيارة الذي تعرَّض له لم يُبقِ من أعضائه الداخلية ما قد يُبقيه على قيد الحياة. فقد تحطَّمت أحشاؤه، بقيَ وجهه سليمًا ولكنه مُغطًّى بأقنعة التنفُّس وخراطيم الماكينات، التي تصدر أصواتًا وصفيرًا يخضُّ الروح. أمسكت بها جدَّتها الحنونة وقالت لها:

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

- سيذهب والدك في رحلة طويلة بعض الشيء، تعالي يا حبيبتي وودَّعيه.

أقبلت رهف إلى حافة السرير وهي بعدُ لا تعي ماذا يحدث على الإطلاق، ففي رأسها سينتهي اليوم كما انتهى أمس. تخرج من المدرسة بعد انتهاء اليوم بكامله، وتنتظر أباها مع نجوى على باب المدرسة بجانب غرفة الحراسة التي على يمين البوابة الخضراء. يتأخَّر بضع دقائق ثم يصل فتصعد إلى السيارة وتقبِّله ويذهبان إلى البيت للغداء وللعب مع أخيها سند، لم يكن ببالها على الإطلاق أن هذه المرة تأخُّره لن يكون بضعَ دقائق بل حياةً كاملةً.

نظرت إلى عينَي أبيها الحزينتين المتألِّمتين فبدأ ألمه ينتقل من جسده إلى جسدها، وبدأت بالصراخ بنقمة عليه وعلى كل الدنيا.

عزيزي القارئ، كل الخواتيم فيها نوعٌ من خيبة الأمل، مهما كان الكاتب بارعًا لن تصل براعته إلى براعة خيالك، لذلك لن أصف أنا هول المشهد ولكني سأتركه لمخيلتك إن شئت، وإن لم تشأ أو كنت من الذين يهربون من هذه المشاهد فسأقاطع مُخيلتك بجملة واحدة تلفظت بها رهف من ضمن ما تلفظت به.

نظرت إلى نصف عينه اليسرى وقالت وكأنها تهدده:

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

- إذا رحلتَ، اعلم أنك خذلتني.

لم تكد تمرُّ ثانية بعد هذه الجملة حتى تغيَّر صوت صفير الماكينات، وركضت الممرضات إلى الغرفة، ودار ضجيج متصاعد من زاوية الغرفة التي فيها أم رهف. وما كان من الجدَّة التي كانت تقف بعباءتها العظيمة وعصاها التقليدية إلَّا أن أمسكت بيد رهف وقادتها إلى خارج الغرفة، وقد أصاب رهف الصمت ودار في رأسها سؤال نجوى:

«هل قتلتِه بما قلتِ؟ عودي واعتذري لعلَّه يرجع أو لعلَّه يذهب راضيًا».

جلست الجدَّة على كرسي في صف كراسي أزرق في رواق المستشفى خارج الغرفة مباشرة، حيث كان الضجيج ما زال مسموعًا بوضوح قاتل. بدأت رهف تقاوم جدَّتها تريد الدخول فأمسكتها الجدَّة بقوَّة من ذراعيها الاثنتين وثبتتها تثبيتًا وقالت لها:

- لا يمكنك أن تدخلي الآن، وامسكي دمعاتك ولسانك وكوني قوية ولا تظهري حزنك.

وعانقتها الجدة وهي تظن أنها تحسن صنعًا.

منذ تلك الكلمات وتلك اللحظة أصبحت تقول رهف فقط ما تقبله الدنيا، ما ترضاه أُمُّها الحزينة. كانت كلما أرادت أن تعبِّر عمَّا في داخلها تلجأ للكتابة وتخفي أوراقها مخافةً أن تجدها

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

أُمُّها، إلى أن التقت شابًّا لطيفًا اسمه مجد في سنواتها الجامعية. فتحت له روحها وقلبها وعبَّرت له بكل ما يختلج في نفسها وبكل وسائل التعبير قولًا وصراخًا وغيرة وكتابةً وجسدًا وجنونًا ولكنه خذلها بالغربة والرحيل. أصبحت أشد حذرًا من جديد، وأغلقت أجزاء منها بداخلها من جديد، حتى التقت في سهرة مع أصدقاء برجل أعمال شابٍّ وسيم اسمه عاصم. كان غاية في الاحترام والرُّقي، أحبها حبًّا شديدًا فوثقت به شيئًا فشيئًا وتزوجته وأنجبت له طفليْن حتى خذلها بالخيانة والرحيل.

تذكَّرت رهف خذلان أبيها ورحيله، وخذلان حبيبها ورحيله، وخذلان زوجها ورحيله فحبست نفسها من جديد، وحاولت العودة لأي سبيل من سُبل القول والبوح والتعبير لكنها عجزت حتى عن كتابة ما يدور بداخلها، فبعد صدمة الخيانة والطلاق صارت تكتب على الأوراق ثم تنظر إليها وتقول:

«ليس هذا ما كتبت!».

فنصحتها صديقتها نجوى بالذهاب إلى طبيب نفسي.

* * *

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

اليوم الجلسة الرابعة (الأخيرة)

بعد انقضاء أسبوع على جلستها السابقة، دخلت رهف عيادة طبيبها النفسي. ألقت التحية على مساعدته شذا، التي أدخلتها عليه رأسًا كأنها تطيع أوامر مسبقة.

دخلت عليه بوجهٍ مُتهلل سعيدٍ راضٍ فحاول أن يمتلك نفسه لكنه عجز فقال:

- كم تليق بك الحرية الراقية.

كان موهوبًا بأن يصيب تمامًا ما يشعره الناس. فتورَّد خدَّاها من صدق كلماته وحقيقتها. وأردف قائلًا:

- اجلسي يا عزيزتي، لعلنا نختتم العلاج بهذه الجلسة فلقد حضَّرت تقريرًا كاملًا بحالتك. أنوي أن أنشره، بعد موافقتك طبعًا، ولكني في حيرة من أمري. هلْ أنشره كتقرير علمي في مجلة متخصصة ينتفع بها الأطباء كي يعالجوا مَن قد يُصاب بمثل حالتِك، أو أنشرها كقصَّة قصيرة في مطلع كتاب روايات فلسفية قصيرة؟

قاطعته رهف وفتحت حقيبتها وأخرجت منها ورقة ناولته إيَّاها فقرأ ما يلي:

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

«دعك من الجلسة الأخيرة وتحليلاتها يا ناصر. هل تقبل دعوتي إلى الغداء».

رفع عينيه في غبطة ممزوجة بحيرة وتيه وضياع كامل وسألها:

- هل هذا حقًّا ما كتبتِ؟

https://t.me/osn_osn

مكتبة إيلينا
Elena book

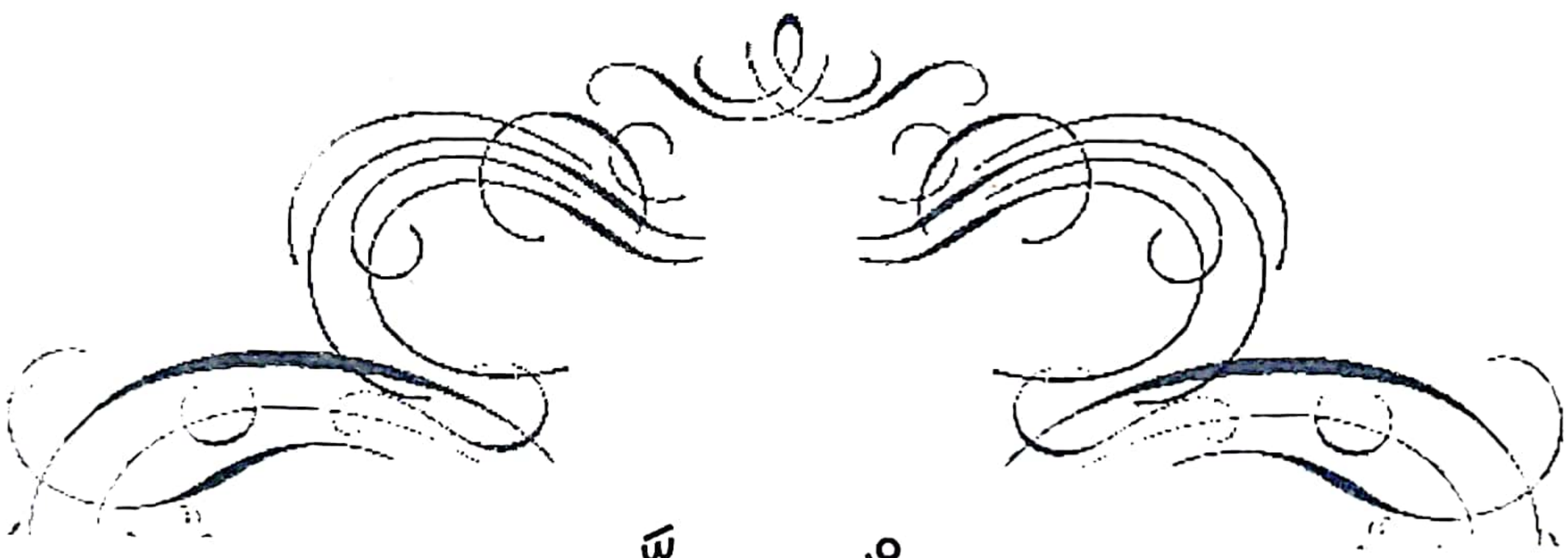

اجتماعٌ سريٌّ لحكَّام كوكب

https://t.me/osn_osn

مكتبة إيلينا
Elena book

قصةُ هذا الاجتماع السريِّ من نسج الخيال الجامح لدرجة أنها قد حدثت على كوكب آخر غير كوكب الأرض. كوكب صغير يشبه الأرض بعيد جدًّا عن المجموعة الشمسية، اسمه كوكب «الحيرة»، يقطنه كائنات تشبهنا تمامًا وتشبه مجتمعاتنا إلى حد كبير، ولكنهم يفوقوننا بشيء بسيط جدًّا في قدرتهم على التخطيط، وحُبهم للخير وبغضهم للحروب. ويقال إن فناء هذه الكائنات حدث بعد نحو مئة عامٍ، مما نعد نحن بني البشر في كوكبنا، من هذا الاجتماع ولا ندري إن كان هذان الحدثان مرتبطين. إذ إنه لا يوجد وثائق تثبت أن هذا الاجتماع قد حدث فعلًا على كوكب الحيرة، وإن كان قد حدث لا أحد يعلم ما دار فيه...

لكن يُحكى أن:

دخل خمسةُ ذكور من هذه الكائنات إلى غرفة في عمق باطن كوكب الحيرة، غرفة مظلمة فارغة تمامًا إلا من خمسة

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

أشياء تشبه الكراسي، مصفوفة على شكل دائري ولا يوجد بينها طاولة. دخلوا في صمت تام يتبع بعضهم بعضًا وتملأ ملامحهم الجدية المفرطة والقلق كأنهم أمام مصيبة حتمية ولكنها لن تحدث اليوم، إلَّا أنهم متيقنون من حدوثها في المستقبل القريب. ودخل معهم كائن غريب لا يشبههم كأنه ليس من كائنات كوكب الحيرة، وفي ملامحه شيءٌ يوحي بأنه عابر للكواكب والأزمنة، يبدو كطيف أسود شفاف يجول بينهم جميعًا وفي وجهه الغريب بريق من الشعور بالانتصار بسبب انعقاد هذا الاجتماع.

توجَّه كلٌّ مِن الكائنات الخمسة وجلسوا على ذلك الشيء الذي يشبه الكرسي وبقي الطيف الأسود يتجوَّل حول دائرتهم، كأنه يوهمهم بأنه خادمهم. وبدأ الاجتماع حيث عرَّف كلٌّ واحد منهم عن نفسه بكلمة واحدة، دون أن يذكُر اسمه بل بذكر أي شيء يحكمه على كوكب الحيرة.

فقال الكائن الأول: «أنا حاكم العلم».

والكائن الثاني: «حاكم الأخلاق».

والكائن الثالث: «حاكم الاقتصاد».

والكائن الرابع: «حاكم التكنولوجيا».

والكائن الخامس: «حاكم الإعلام».

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

وبقيَ الطيف الأسود صامتًا وبدا صمته طبيعيًّا لا يُستغرب، فلا هم يعرفون أن يصفوه ولا هو يُعرَّف عن نفسه، ولكنه موجود بينهم ومعهم وحتى بين جنباتهم.

قال كائن العلم مفتتحًا:

- اليوم علينا أن نوقِّع خطةَ عملٍ للكوكب، لا يسعنا أن نؤجل ولا ليوم آخر. إن موارد الكوكب تنضب، ومهما قلَّبت في معادلاتي العلمية والأرقام وتحايلت على الإحصائيات فإني أصطدم بالنتيجة نفسها. بقي لدينا نحو ثمانين عامًا لنجوع ويقتلنا العطش وتنضب طاقتنا تمامًا.

كائن الأخلاق:

- كلام خطير فعلًا. هكذا ستعم الفوضى ويتضعضع نظام الكوكب وقد يقتل الناس بعضهم بعضًا، ولقد نلنا ما نلنا من ويلات العنف والحروب والقتل والتشرُّد. لا يمكن أن نسمح بهذا، ألديك اقتراح؟

كائن العلم:

- ليس لديَّ اقتراح، ولكني بحثت في إذا ما كانت زيادة إنتاج الكوكب أو استخدام طاقاته المتجددة كافية، ولكن مستحيل. لن نستطيع الصمود إلا إذا عملنا على طرفَي المعادلة زيادة الإنتاج من ناحية والحد من استنزاف

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

الموارد من الناحية الأخرى وهذه هي الطريقة الوحيدة المُجدية.

كائن الإعلام:

- وكيف نحد من استهلاك موارد الكوكب؟

فأجاب كائن الاقتصاد:

- إن المستهلك الأوَّل لموارد الكوكب هم بني جنسنا من الكائنات، ولتقليل الاستنزاف والوصول إلى معادلة متوازنة تضمن بقاءنا لا أرى حلًّا إلَّا تقليل عددنا.

فرد كائن الأخلاق:

- ماذا تعني بتقليل؟ أنقتل بني جنسنا؟ لن أوقِّع هذا على الإطلاق.

رد كائن العلم:

- أودُّ أن أذكرك عزيزي حاكم الأخلاق، إننا نتساوى في الأخلاق، فنحن جميعًا لسنا أشرارًا ولا بغاة زيادة في السلطة ولا المال، فإننا قد أوتينا منها ما يشبع حاجتنا لها. ولكننا اليوم أمام معضلة أعظم من هذا وهي حماية وجودنا أو على الأقل حماية وجود بعضٍ منَّا على هذا الكوكب. وأنا مثلك أستشعر صعوبة أن نقنع أنفسنا أن

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

تقليل عدد أبناء جنسنا في السنين القادمة قرارٌ مصيري ولكنه خيارنا الأوحد لحفظ الحياة على كوكبنا. وأعلم كم يصعب علينا أن نقتنع أنه قرار أخلاقي مهما بدا عكس ذلك.

أصاب صمت الحيرة حاكم الأخلاق، فأكمل حاكم العلم بقطعيَّته وعنجهيَّته المعهودة قائلًا:

- في الحقيقة نحن لا نناقش قرارَ تقليل عددنا أو عدم تقليله، فالمعادلة واضحة إما أن نقلل عددنا وإما نموت جميعًا ويفنى جنسنا بطريقة مروعة، ولا أعتقد أن قرارَ فنائنا مطروحٌ. لذلك أرى أن الأجدى من اجتماعنا هذا أن نناقش ونقرر كيف نقلل عددنا ونصل إلى رقم محدد يكون باستطاعة موارد الكوكب المتجددة المستدامة تغطية حاجاته فنضمن بقاء جنسنا إلى أبدٍ.

فقال حاكم الأخلاق:

- ولكنه قرار غير أخلاقي.

فرد حاكم الإعلام:

- أتفق معك تمامًا، قرارٌ ضروريٌّ غير أخلاقي، وبذلك يصبح السؤال كيف نجعله أخلاقيًّا؟

حاكم الأخلاق:

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

- وهل هناك طريقة لجعله أخلاقيًّا؟

حاكم الإعلام:

- طبعًا، فهذا يعتمد نوعًا ما على أدوات تنفيذه وطرقها. فإذا قتلنا أبناء جنسنا بالحروب والأسلحة أو غصبناهم على ما يكرهون فهذا لا شك يجعل القرار غير أخلاقي ولا يمكننا تبريره أمام أنفسنا. ولكن إذا جعلنا أبناء جنسنا يسيرون بهذا القرار من تلقاء أنفسهم وبملء إرادتهم وقناعتهم فإنه يصبح أخلاقيًّا تمامًا، بل حتى إنه يصبح أمرًا غير أخلاقي أن تمنعهم عنه، فإن حرية الاختيار الفردي أقدس مقدساتنا.

حاكم العلم:

- يا لك من حاكم سياسي مُحنَّك، أرى فيما تقول بعض ما قد نستند إليه.

حاكم الأخلاق:

- وهل ممكن أن يختار بنو جنسنا فناءهم بأنفسهم؟ كيف ومن سيقنعهم بهذا؟

فرد حاكم الإعلام:

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

- دعوا الإقناع لي، فقط أخبِروني بماذا تودُّون إقناعهم وأنا أقوم بذلك. إن سُبلي وأدواتي أصبحت لصيقة بعقولهم وبقراراتهم وأنا صانع أحلامهم ومخاوفهم وأنا أخبرهم ما هو الصواب وما هو الخطأ. أصبحوا يأتمرون برسالاتي فإني مرجعهم ومصدرهم الموثوق. ونتعاون على ذلك أنا وحاكم التكنولوجيا.

ابتسم حاكم التكنولوجيا:

- بالفعل إذا تعاونت أنا وحاكم الإعلام فإنَّا لا شك قادران على التأثير المباشر على حياة بني جنسنا وإحياء أو طمس أي المفاهيم نريد.

ساد الصمت في الغرفة وغرق كلٌّ مِن الكائنات الخمسة وكأنهم ينتظرون فكرة تخرق صمتهم ويتوافقون عليها وطال صمتهم. وفي خطوات سلِسة تسحَّب الطيفُ الأسود من زاوية الغرفة وانحنى على ناحية الكتف اليسرى من حاكم العلم واقترب من أذنه وهمس بصوت خفيف:

- أنت أذكاهم جميعًا، فكِّر في الأساسيات، أنا متأكد أنك بعلمك وعقلك وموضوعيتك قادرٌ على أن تحل هذه المعضلة العظيمة وتخلِّد في تاريخ كوكبكم، كيف أن فكرتك أنقذتكم جميعًا...

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

فصرخ حاكم العلم كأنه أُلهم:

- وجدتها.

فقال الحُكَّام الباقون في آنٍ واحد:

- ما هي؟

حاكم العلم:

- نقلل عددنا من خلال ضرب المفاهيم التي تساهم في البقاء والتكاثر.

حاكم الأخلاق:

- لم أفهم.

حاكم العلم:

- نحن لا نريد قتل أعدادٍ منَّا بالأسلحة الحسية الفتاكة ولا بالحروب الباهظة الثمن ماديًّا وبيئيًّا وأخلاقيًّا، لذلك نقلل أعدادنا تدريجيًّا من خلال إحياء وبث ونشر وترسيخ مفاهيم وقيم وأحاسيس تناقض غريزة وطبيعة ورغبة بني جنسنا من الكائنات بالتكاثر والإنجاب والبقاء، وغيرها من الأفكار الشبيهة التأثير. ونحثهم على اختيارها كمراجع تنتج حياتهم، تهبهم وهم الحرية والمتعة، وبهذا فإنهم من تلقاء أنفسهم، أو أغلبهم على الأقل، سيختارونها

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

كبدائل لقيمهم ومفاهيمهم وما بين جيلين منهم أو ثلاثة بأقصى تقدير نصل إلى مبتغانا دون دماء ولا قتل.

فكرر حاكم الأخلاق سؤاله:

- ما زلت لا أقتنع لماذا سيختارون مفاهيم فيها ضرب تكاثرهم؟

تسحَّب الطيف الأسود بهدوء تاركًا الأذن اليسرى لحاكم العلم واتجه إلى أذن حاكم الإعلام وهمس بها قائلًا:

- أنت أدرى الحاضرين بقوَّة التأثير والكلمة والصورة، أنتم كائنات طيبة تحبون ما يبدو لكم على أنه خير.

فقال حاكم الإعلام وكأنما استحضر وحيًا:

- سنلفها بلفائف الحق والخير، ونغلفها بنصرة المظلوم المضطهد، ونصورها على أنها هي التقدُّم وفيها العدل والمساواة والازدهار. وأنا على يقين أن حب الخير والعدل سيجعل بني جنسنا يتبنُّونها ويدافعون عنها بحماسة شديدة، ولا سيما أنها لن تكون قائمة على فراغ، أغلبها، بل سنستعمل قضايا قد تكون مُحِقَّة فعلًا ونبالغ فيها حتى تأتي بالخلل، ومع الخلل تتوقف دورة حياة مجتمعنا وإذا حالفنا الحظ بعض الشيء ننجح. ولكني بعدُ لا أدري ما هي تلك المفاهيم التي نحن بصدد معالجتها.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

فقال حاكم العلم:

- أعتقد أن عدونا الأول هو الميل الذي ينشأ بين الذكر من كائناتنا إلى الأنثى منها، على كوكب الأرض يسمُّونه الحب. تفاعُل غامض ينتج عن كم هائل من العناصر الداخلية والظرفية التي تمتزج في لحظة سحرية. حيث يلتقي الجنسان في هذه اللحظة أو المصادفة المقدَّرة بدقَّة، وكأنهما كانا يبحثان عن بعضهما، وكأن الكون كان يجهزهما لذلك الإحساس الآسر، لحظة يكون كلٌّ منهما بحاجة ملحَّة حارقة للثاني، وينقلب كيان الكائنين وخليط جسديهما وتتعطَّل رجاحة التفكير المنطقي وتحكمهما شهوة صادقة لا تنطفئ إلا عندما يمتزجان معًا.

فقال حاكم الأخلاق:

- الحب عدوٌّ لبقائنا؟ أنضرب الشعور الذي بسببه خلقنا وتطورنا وتقدمنا وأنجزنا؟ فما تحركت ريشة رسَّام ولا مهندس لترسم لوحة أو جسر إلا به، وما تحرَّك مشرط جزار أو طبيب إلا به، دافع وجودنا ومحفزنا ومحركنا، أنقضي عليه؟

فرد حاكم العلم:

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

- لا أعتقد أنه علينا أن نقضي عليه تمامًا، علينا أن نجعله أقل عمقًا وأشد صعوبة وأكثر هشاشة، ولا سيما ذلك الذي لديه فرصة أكبر للمساهمة في التكاثر وبالتالي استنزاف موارد الكوكب.

- وأيُّ حبٍّ هذا؟

قال حاكم الإعلام مستوضحًا.

فأجاب حاكم التكنولوجيا:

- هناك أوجه كثيرة للحب على كوكبنا اليوم، ولكن معظم الحب الذي يساهم في التكاثر، إلى الآن، هو في إطار عقد تزاوج بين ذكر وأنثى وعن هذا العقد تنتج الوحدة التي تنتج الأطفال، يسمونها الأسرة على كوكب الأرض. ولا تزال تكبر إلى أن يصبح اسمها عائلة. وكلما كانت نموذجًا ناجحًا أنتجت أطفالًا أصحَّاء نفسيًّا وجسديًّا، وهم بدورهم، تأثروا بالنموذج الناجح الذي رأوه في طفولتهم، يكونون أكثر احتمالًا للوقوع في ذلك الميل وتأطيره في عقد التزاوج، وهكذا حلقة متواصلة من التكاثر والإنجاب والتزايد.

نظر الطيفُ الأسود في عينَي حاكم الاقتصاد نظرة مبالغة بالإعجاب وأعطاه شعورًا بالثقة والقوَّة فقال حاكم الاقتصاد:

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

- إذن لنُصغِّر دائرة أهدافنا، ويبدو أن الوحدة الداعمة للتكاثر والزيادة والاستهلاك هي الأسرة. فلنضرب الأسرة إذًا.

حاكم الإعلام:

- ولكنها متينة جدًّا، أليس كذلك؟

حاكم الأخلاق:

- لا يا عزيزي فهي مليئة بنقاط الضعف الحقيقية التي تُوهنها وتجعل ضربها سهلًا جدًّا. فعلى مدى حِقب كان كثيرٌ من الكائنات الذكور شديدي القسوة وقليلي التقدير، وكان قوام الكثير من الأُسر يعتمد على تضحية غير متوازنة. حيث كان الذكر أكثر سطوة فقد استطاع أن يميل بميزان الأسرة والمجتمع لصالحه، وأعطى لنفسه حقوقًا حجبها عن غيره، في كثير من الأحيان فقد طغى وظلم وأرهق الأنثى.

فقال حاكم العلم:

- ممتاز لنبدأ من هنا، لنقلب الميزان. إن ما جعل هذا النموذج قائمًا لسنين عدَّة رغم هذا الوهن الذي ذكرت هو وضوح الأدوار وقيادة عنصر ودعم عنصر آخر، وإن كان قد أُسيء استخدامه بشكل صارخ فلنبدأ من هنا. أرى أنه

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

علينا أن نضرب الأدوار، لنعطي القوَّة والسطوة للأنثى وننصرها على مَن ظلمها أو بالأقل نساوي الذكر والأنثى في القوة والسطوة. هذا لا شك سيتحدَّى ديناميكية أي علاقة. هذه البداية فقط.

رد حاكم الاقتصاد:

- من زاويتي يبدو هذا نوعًا ما سهلًا، فإن معظم السطوة تكمُن في الاعتماد المادي، ولكني بحاجة إلى حاكم الإعلام.

حاكم الإعلام:

- وكيف أساعدك؟

حاكم الاقتصاد:

- علينا بداية أن نقنع الكائنات جميعًا بصعوبة الرضى وبالحاجة الملحة لمداخيل أكبر لمجاراة معايير نرسمها نحن من خلال وسائلك. وفيها غير غلاء الدنيا الحقيقي، نحوِّل لهم الكماليَّات إلى أولويَّات، علينا أن نلغي كلمة كماليَّات من المصطلح الاجتماعي، ونجعل كل السلع من ضروريَّات العيش، بعضهم قدر على اقتنائها والبعض الآخر يعيش في ألم غياب ضرورة من ضروريات الحياة، فما زال يكافح حتى ينالها.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

حاكم الأخلاق:

- وما دخل هذا بالعائلة؟

فرد حاكم الاقتصاد:

- هذا سيدفع نسبة كبيرة جدًّا من الأسر لتقتنع أنها بحاجة إلى مدخول مضاعف، وبذلك فإنها ستدفع بعنصريها إلى سوق العمل. وهذا له فوائد اقتصادية كثيرة على المدى المنظور، وهو أخلاقي تمامًا لأن الأنثى لا يمكن أن تبقى أسيرة الذكر. وعندما تدخل هي السوق فإننا سوف نثقلها بالواجبات والآمال والتطور والفرص، لا بل يمكننا أن نجبر الشركات على توظيف الأنثى ونرغمهم بنسب دقيقة ليتساوى الذكور والإناث، وبهذا نطال معظم الأسر من المستويات كافة.

حاكم الأخلاق:

- إنها فعلًا خطة مُحكمة وهي فعلًا قائمة على حق مستحق للأنثى، ولكن كلِّي إيمان بأنثى جنسنا وطاقاتها وقدرتها على التوفيق بين الاثنين، الأسرة وسوق العمل.

حاكم الاقتصاد:

- أتفق معك، لذلك علينا البحث عن أمر إضافيٍّ يساهم في وهن الأسرة.

https://t.me/osn_osn

مكتبة إيلينا
Elena book

حاكم الإعلام:

- أعتقد أنه بالإضافة إلى مفهوم التضحية الذي قامت عليه الأسر المنتجة حتى اليوم، هناك مفهوم الوفاء. ومن تجربتي في ميدان الإعلام أرى أن الذكر من بني جنسنا أضعف بقليل من الأنثى بصون هذا المفهوم، حتى اليوم، ربما لأنهم هم من اختبرناهم. وبما أن الوفاء هو أكثر ما تقدره الأنثى إذ تراه مرتبطًا بهويتها وكيانها، فهي قلما تعفو عن الخيانة وتصفح.

حاكم التكنولوجيا:

- فلنستعمل هذا الضعف في ذكورنا، لنسهِّل لهم الخيانة ونغرقهم بالخيارات التي تقتل الرضى ونضربهم بالسرعة التي تستعجل الملل. وهذا متاح من خلال تعريضهم لصور مبالغ فيها من الجمال والشهوة السريعة والإبهار، ونوهمهم بأن السعادة المرجوَّة موجودة في كل الأمكنة إلا مكانهم وبين كل الناس إلا أناسهم وفي كل الحيوات إلا حياتهم. وفي الوقت نفسه بعد أن يقعوا في فخ إرضاء شهواتهم الآنيَّة، فإنها لا شك تتسبب بخيبات أمل متفاوتة، بحسب الفجوة بين ما هيَّأنا لهم نحن وما اختبروه في الواقع. وبذلك يصبح ذكورنا أقل قدرة على صون الوفاء

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

من جهة، وأكثر عرضة للملل وانطفاء الرغبة من جهة أخرى وسيبحثون عن متع أكبر وأكثر.

ومع مرور بعض الوقت، نحو نصف جيل تقريبًا، قد يصيب الإناث ما أصاب الذكور، فيصبحن أقل صونًا للوفاء وأقل تقبُّلًا لحدود المتعة وقد يبالغ الجنسين في البحث عنها. لا أقول إن كلهم سيفعلون هذا تأثرًا بخطتنا، ولكننا نعلم أن سواد المفاهيم يجعل كائنات أكثر تتبنَّاها.

وقد تزيد بهذا الذكورة في الإناث والأنوثة في الرجال، بل إنه قد لا يبقى هذا المُسمَّى على حاله أصلًا. فحين تذهب الفروقات تذهب الحاجة إلى التصنيف، فقد يصبح حتى النوع البيولوجي وجهة نظر، وهنا نكون قد ضربنا الإنجاب والبقاء من داخل الأسرة وخارجها. بل إن هذا قد يغيِّر الأسرة بمفهومها الحالي بين ذكر وأنثى وقد يتزوَّج الذكر بالـــ...

فركض الطيف الأسود نحو حاكم التكنولوجيا واقترب من أذنه كالبرق هامسًا:

- يا لإبداعك، لقد أصبت التكاثر في مقتل ولكني لا أرى أنهم جاهزون لما تقول وتقترح، لا بأس، فإن كان هذا لا بد حاصلًا فلا داعي لتقول أكثر لئلا يخافوا من غرابة القول.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

فصمت حاكم التكنولوجيا قبل أن يكمل كلمته ليكتشف أن ذاك الطيف تنبَّأ ردَّة فعلهم حيث إن حاكم الأخلاق قاطعه قائلًا:

- الأسرة بمفهوم جديد والجنس البيولوجي وجهة نظر! لعلك شطحت بخيالك قليلًا. على أي حال أرى أن جنسنا أذكى من خطتنا المطروحة بكثير، فهي تبدو لي واضحة تمامًا وكذلك ستبدو لمعظمهم بلا شك، سيكتشفون أمرنا حتمًا.

حاكم الإعلام:

- أعتقد أن حاكم الأخلاق على حق، إن نوعنا ذكي متطور فإذا تأمل قليلًا فإنه لا شك سيكشف الخطة وفيهم المتعلم والمثقف والمتفلسف والمتنوِّر، وإذا خلا أحد منهم بنفسه وأبطأ قليلًا لاكتشف خطتنا.

حاكم التكنولوجيا:

- لن نستطيع أن نخدعهم جميعًا، لا شك أنه سيبقى منهم من قد يدرك الحقيقة بلحظة تأمُّل. ولكن المهم أن تبقى الأغلبية على عمى مما يدور بيننا اليوم.

وصمت كأنه عجز عن استكمال الفكرة. فاقترب منه الطيف الأسود من جديد، وانحنى خلف أذنه ونفث فيها:

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

- يا لك من مُصمم ومهندس بارع، لقد ساهمت في تسريع التطوُّر بشكل غير مسبوق، وكأن السرعة التي أنتجتها جعلت بني جنسكم يتحررون من الحاجة والعناء وصرف الوقت والجهد فى تحصيل المعرفة.

فأكمل حاكم التكنولوجيا وقد استلهم من همس الطيف:

- لكيلا تُكتشف خطتنا، أرى أنه علينا ضرب المعرفة.

حاكم الأخلاق:

- وكيف تضربون المعرفة؟

رد حاكم التكنولوجيا:

- لن نحاول إلغاء المعرفة، ولكننا سنحوِّلها ونحوِّرها بعض الشيء عن سبب وجودها. إن سبب وجود المعرفة هو الاقتراب من الحقيقة ويتم ذلك بالعلم والتعلُّم والتفكُّر والتأمُّل وتحدِّي المعارف السابقة. ما يمكننا فعله هو أن نحد المعرفة بالعلم وعزلهما عن سببهما. سنجعل من العلم سببًا لكسب الرزق فقط، وبذلك ستنتج المجتمعات أناسًا متعلِّمة ولكنهم بالحقيقة أصحاب مصالح اكتسبوها بعدد سنين في تلقي العلم وتنتهي رحلة البحث عن الحقائق، وبهذا تغيب عنهم حقيقة خطتنا وطبعًا ستغيب عنهم حقائق أخرى بهذه الأهمية أو أقل أو أكثر.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

حاكم الإعلام:

- وأنا قد أساهم في ضرب الفلسفة والتفكُّر بينهم إما بالانشغال المتواصل أو بجعل كلمة فلسفة نفسها مدعاة للسخرية ونجعل من فيلسوفهم ومفكرهم كائنًا منبوذًا أو وحيدًا أو غير منصت له.

حاكم التكنولوجيا:

- أعتقد أن لدي بعض الأفكار قد تساهم في هذا أيضًا، سوف أُنتج لهم بعض المساحات يتناقلون بها آراءهم، مساحات افتراضية فيها بعض العزلة عن المحيط لكي يصعب عليهم استحضار أفكارهم. وهذا طبعًا سيف ذو حدين، نضرب به تواصلهم وبالتالي فرص بناء المعرفة الإيجابية من ناحية، ومن الناحية الأخرى هذه مساحات عامَّة تكثر فيها الطروحات، والأفكار، والكلام وبهذا فإنها تصبح متوفرة تمامًا، فتقِل قيمتها وترخص ولا تعد تلقى آذانًا مصغية. ليس هذا فحسب بل سيتساوى فيها الرأي السديد راجحًا مع الرأي الضعيف، ولكن لكثرة الآراء الضعيفة فإنها ستغمر في طياتها الآراء والطروحات الثقيلة الراجحة الصادقة.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

ولكم عندي ما يدهشكم، فإني سوف أُتم تطوير ذكاء اصطناعي قابل للتعلُّم بشكل يفوق قدرة جنسنا، فتقل بطبيعة الحال مهمَّة إنتاج المعرفة وتقل حاجتنا إلى التأمل والتفكُّر والغوص فتخسر عقولنا ما تخسر من قدرتها على الحكمة والمعرفة والإبداع. ليس هذا فحسب، فقد يساهم هذا الذكاء باستبدال الكثير من الكائنات التي نحتاجها اليوم للإنتاج وبهذا نسد ثغرة تقليل عددنا، فنحن ما زلنا نحتاج إلى اليد العاملة في كل المجالات، ولكن مع هذا الذكاء ستحل هذه المعضلة.

حاكم الأخلاق:

- إذن ستضربون المعرفة بوفرة المعرفة. وماذا تفعلون بالشباب من أبناء جنسنا؟ أعتقد أنهم أكثر ثورة وذكاء من المعمرين، فكيف ستحجبون عنهم خطتكم؟

حاكم العلم:

- لعله علينا أن نوجِّه حماسة شبابهم وطاقاتهم في أمور لا تشكِّل خطورة على كشف خطتنا.

حاكم التكنولوجيا:

- الإدمان. الجيل الناشئ من بني جنسنا أكثر عرضة للإدمان. لذلك سنحوك له إدمانًا جديدًا، إدمان التسلية

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

الفارغة ونهبه مخرجًا من جنون مجتمعه القاسي ولا سيما بعد ما سيحدث في الأسرة. ووهب شبابنا هذا المخرج أمرًا أخلاقيًّا كذلك. سيساعدهم للاستعاضة عما فقدوه فإن لهم حقًّا بالرعاية والسلوى والراحة. وأنا سأنتج لهم مساحة لهذا أغلبها تفاهة تحول دون تفكُّرهم وفيها بعض ما قد ينشئهم على الخير ولكن كالعادة يضيع الخير بالتفاهة.

حاكم الأخلاق:

- إدمان على التفاهة لجيل النُّشء؟ والله إنها نهايتنا دون شك.

حاكم الاقتصاد:

- إن كل ما سبق فيه منفعة اقتصادية كبيرة، عنصر عامل جديد، وإدمان على أدوات تسويقية وإلهاء الجنس عن التفكُّر، وإذا فكَّروا فإنهم سيفكرون بالمتاح لهم التفكُّر فيه من فرديَّة وتفاهة وشهوة وسعادة زائفة وغيرها، وكل هذا تحت قضايا مُحِقَّة فعلًا والجميل أنها تصب في مصلحة الكوكب العليا وهي تقليل استنزاف الكوكب وبقاء نوعنا وتقليل عددنا.

حاكم الأخلاق:

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

- وهل سيسكت الباقون؟

حاكم الإعلام:

- ومَن هم الباقون؟

حاكم الأخلاق:

- أهل التضحية رغم ألمها، وأهل الوفاء رغم صعوبته، وأهل المعرفة رغم ندرتها، وأهل الميزان الذين يرصدون الخلل ويقاومونه. لن تستطيعوا أن تسكتوا هؤلاء.

فأجاب حاكم الإعلام:

- لن نسكتهم نحن، فنحن دعاة حرية وتقبُّل، ولكن سيسكتهم كلُّ مَن بالغ باعتناق خطتنا. فلن يكتب أو يقول منهم أحد عما هو مخالف لخطتنا إلا ألقوه بالتهم الحاضرة من رجعيَّة وغيرها وتشويه لسمعته وإسكاته تمامًا. هذا لن نقوم به نحن، سندع المؤمنين بخطتنا يقومون به.

فقال حاكم العلم:

- هذه خطتنا المتكاملة لنبقى، متفقون؟

فأجاب الحكَّام جميعًا:

- متفقون.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

وأردف حاكم الأخلاق بصوت المهزوم:

- أنا على يقين أن هناك احتمالًا آخر للبقاء، وهناك احتمالًا آخر لإعطاء الحقوق المستحقة ورفع الاضطهاد، وعلى يقين أن في مكان ما سيختل الميزان من جديد وتكون النتيجة الحتمية نفسها: الفناء التام. ولكني تعبت من الجدال والمواجهة، فلنجرِّب خطتكم.

وتنفَّس الطيف الأسود الصعداء وابتسم بخسة المنتصر المراوغ.

وقاموا جميعًا عن ذلك الشيء الذي يشبه الكرسي، ومشوا خارجين من تلك الغرفة المظلمة في جوف كوكب الحيرة. وبعد مائة عام تقريبًا، وصل إلى كوكبنا الحبيب «الأرض» خبر فناء آخر الكائنات التي تسكن كوكب «الحيرة».

وكما أخبرتكم، لا ندري إن كان حكَّام كوكب الحيرة قد اجتمعوا وخططوا ونفذوا بالفعل، ولكننا ندري أنهم قد فنوا بالفعل. ولا ندري إذا كان سبب الفناء هو خلل في الخطَّة أو خلل في التنفيذ. لعلها لم تكن خطة مدروسة من حكام الكوكب لأجل موارد تنضب، بل ببساطة كانت نتيجة طبيعية لا مفر منها.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

وتذكروا هي قصة على كوكب آخر ليس لها دلالة ولا هي نظرية متينة ولا تمت لواقع كوكبنا بصلة فهي فعلا لا تتخطَّى أن تكون قصة خيالية ركيكة متشائمة عما حدث في ذلك الكوكب. أمَّا نحن فما زلنا في بحثنا عن احتمالات أخرى، وسنجدها. ولو كان هذا الاجتماع السريُّ قد حدث على كوكب الأرض لانتصر حاكم الأخلاق، ولانهزم ذلك الطيف الأسود. فنحن بعيدون كل البعد عن الفناء والذهاب فكلنا نردد من صغرنا:

«إنما الأمم الأخلاق ما بقيت، فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا».

وما زلنا على كوكبنا نحب ونبدع ونضحِّي ونفي ونتأمَّل ونفكِّر ونعدل...

وما زال لدينا أمل باحتمالات أخرى.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

تجربة خَطِرة

https://t.me/osn_osn
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الأول

وساد الصمت الذي يسبق التوقيع...

على رأس طاولة ضخمة مستطيلة في غرفة اجتماعات باردة في إحدى عواصم العالم العربي، جلس «الأستاذ عارف». رجل يلامس الستين، إذا أمعنت النظر في عينه من خلال نظارته سترى فيهما بلا شك شبابًا يرفض بياض شعره، ودهون كرشه. إذا دققت أكثر، ترى ذلك الصراع بين شيبه وشبابه متجلِّيًا بين الساعة الرقمية التي تلف معصم يده اليُمنى وهاتفه الذكي الحديث الذي يقبض عليه باليد ذاتها من جهة وبين مفكرته القديمة بورقها الأصفر وقلم الرصاص الأحمر صاحب الممحاة الحمراء من جهة أخرى. كأنه هو نفسه مشهدٌ لصراع الأزمنة أو تصالحها.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

الأستاذ عارف رجل عصامي شديد الثراء، له من اسمه نصيبٌ. منذ طفولته كان موهوبًا بالفضول. استطاع بهذه الموهبة أن يراكم معرفة ضخمة وهو في مقتبل العمر. سخَّر هذه المعارف لبناء ثروة مالية ضخمة لا تعنيه. ولكنه يستعملها لإرضاء وإشباع فضوله اللاذع الذي يكبِّل حياته وأفكاره ومتعته كلما تمكَّن منه سؤال حيَّره أو عجز عن إجابته بالبحث والقراءة والتأمُّل.

تجلس عن يمينه شابَّة في الثالثة والثلاثين من العمر، اسمها «وتد».

من مكانه يرى الأستاذ عارف أذنها اليسرى البيضاء تحتجز خلفها شعرها الأسود الناعم ويمتد بياض الأذن ونعومة الشعر على خدها وكأنه مزيج طبيعي استكمل جمالها ورقتها. إن أمعنت في عينيها العسليتين رأيت فيهما فيضًا من الحنان والبراءة، تتناغم مع جسدها الثائر البارز، ويشعُّ من نور عينيها ورائحة جلدها الثائرة على فستانها المحتشم شيءٌ واضحٌ صارخٌ يشبه شعاع ورائحة بداية الحب.

على يمين وتد كان كرسي فارغ وفي الكرسي الذي يليه جلس شابٌّ في الرابع والعشرين من العمر اسمه «راغب». شاب متَّزن بدأت الرجولة تكمل تشكيل ملامحه. أسمر البشرة، حاد القوام، له بسمة تشبه بزوغ الفجر. إذا دققت في عينيه رأيت فيهما أحلامًا لا تنتهي ترفض ما يرتدي من ملابس متواضعة وساعة رخيصة وهاتف يدعو لسخرية زملائه. ولكنك إن دققت أكثر ترى أن بينه وبين عظمة أحلامه مسألة وقت ليست إلَّا، حيث إن كل ما فيه ينم على مستقبل باهر لا محالة.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

وعلى جانب الطاولة الآخر في مقابل وتد وراغب، أي على يسار الأستاذ عارف، جلست أسرة من أب وأم وطفلة في الثمانية من العمر اسمها «غد». كان الأبوان يرتديان ثيابًا مرتَّبة من ثياب الطبقة الوسطى، ويبدو أنهما قد تعلَّما وتوظَّفا وتزوَّجا ليبقيا في هذه الطبقة، ولكنك إذا دققت في عيني الأب وجدت فيهما نوعًا من الخجل ينذر باحتمال الخروج من الطبقة الوسطى إلى ما دونها. أما غد، طفلة جميلة بصحة جيدة متناسقة، واتقاد ذكائها يسبق حداثة سنها في التحليل والفهم، وفي طفولتها رُقيٌّ إما موهبة وإما أن أمها قد أتمَّت تربيتها بشكل صحيح.

قطع الأستاذ عارف ذلك الصمت الذي يسبق التوقيع قائلًا:

- أودُّ أن أشكركم جميعًا مجددًا على الموافقة للخوض في هذه التجربة.

ها هو ذا العقد الذي يضمن لكم حقوقكم، وهي أني سوف أعطي كلَّ واحدٍ منكم ربع ثروتي عند انتهاء التجربة.

أعرف أنكم درستموه مليًّا واستشرتم في سلامته مختصِّين، ولكن للمرة الأخيرة سأقرأ ملخَّصه عليكم للتذكرة والإجابة عن أي سؤال أو استفسار أخير.

وراح الأستاذ عارف يقرأ ويمر على المقاطع غير المُهمة بتمتمة سريعة قائلًا:

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

«لقد وافق كلٌّ مِن (عارف، وتد، راغب وغد ممثلة بأبويها) على هذا الاتفاق لخوض هذه التجربة.

تهدف التجربة للإجابة على ثلاثة أسئلة وهي:

ماذا لو ألغينا الصبر على الحرمان؟

ماذا لو ألغينا الصبر على الملل؟

ماذا لو ألغينا الصبر على الألم؟

بحيث يكون على الطفلة غد (أو أبويها) الإجابة عن السؤال الأول، وراغب عن السؤال الثاني، ووتد عن السؤال الثالث.

مدة التجربة عشرة أعوام.

بالنسبة للسؤال الأوَّل:

ممنوع على الطفلة غد أن تشعر بلحظة حرمان، وعلى أبويها أن يؤمِّنا لها كل ما تطلب وتشتهي في اللحظة التي تشتهيه مهما كان طلبها، ممنوع أن يحرماها من أي شيء ولأي سبب. (التفاصيل ملحقة بهذا العقد).

بالنسبة للسؤال الثاني:

ممنوع على راغب أن يترك نفسه للحظة ملل. قبل أن يبدأ بالملل من أمر ما عليه التوجُّه لأمر آخر يثير شغفه من جديد. (التفاصيل ملحقة بهذا العقد).

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

بالنسبة للسؤال الثالث:

ممنوع منعًا باتًّا على وتد أن تشعر بلحظة ألم جسدي أو نفسي أو عاطفي. عليها أن تدرك خطورة الألم وتتجنَّبه تمامًا. (التفاصيل ملحقة بهذا العقد).

ويُغطي الأستاذ عارف التكاليف المادية المترتبة على إلغاء الحرمان عن الطفلة غد، والملل عن راغب، والألم عن وتد.

وبعد انتهاء التجربة (بعد عشر سنوات) يوزع الأستاذ عارف كامل ثروته على المشاركين بالتساوي، وهو يتعهَّد بتنمية هذه الثروة على مدى الأعوام العشرة القادمة. وفي حال أَخلَّ أحدُ الأطراف بالعقد فمصيره السجن المؤبد.

وبما إنه لا توجد أبحاث تشير إلى ما سوف تؤدي إليه هذه التجربة ونظرًا إلى صعوبة التنبؤ بنتائجها وبما أن جميع الأطراف وافقت طوعًا لخوضها، فإن الأستاذ عارف وجميع الأطراف المشاركة لا تتحمَّل أي مسؤولية عن ما قد ينتج عن هذه التجربة حيث إن جميع الأطراف تشاركه شغف المعرفة للإجابة عن هذه الأسئلة.

يمكن للأطراف الانسحاب من التجربة خلال السنة الأولى من توقيع العقد. ولكن بعد مرور السنة الأولى، لا يمكن لأي من الأطراف وتحت أي ظرف الانسحاب من التجربة، ولا يمكن عدم

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

حضور المقابلة الأخيرة مع الأستاذ عارف، كما يُحظر على أي من الأطراف مقابلة أو حتى البحث في أخبار أو حالات الأطراف الأخرى طوال مدة التجربة».

أنهى الأستاذ عارف قراءة العقد وقال:

- موافقون؟

ردوا جميعًا بكلمة واحدة:

- موافقون.

باستثناء الطفلة غد كانت منشغلة بالكرسي الذي يرتفع ويدور، ولكن على أي حال لم يكن أحدٌ يتوقَّع منها ردًّا.

ودار العقد ليوقِّعوه ففعلوا.

وقال الأستاذ عارف مودِّعًا:

- أراكم في مثل هذا اليوم بعد عشرة أعوام بالتمام والكمال.

https://t.me/osn_osn

مكتبة إيلينا
Elena book

الفصل الثاني

في مثل ذلك اليوم بعد عشرة أعوام بالتمام والكمال...

جلس الأستاذ عارف على رأس الطاولة ذاتها ولم يكن قد تغيَّر كثيرًا إلَّا من ازدياد بسيط في شيبه وإنحنائه وثقل حركته وازدياد ضخم في ثروته التي لا تعنيه، واليوم يتنازل عن ثلاثة أرباعها في سبيل المعرفة وسعيًا وراء حقائق بالغة الأهمية بالنسبة له (ولِنا).

ولكن ما لم يتغيَّر أبدًا هو ذلك النهم المُشع الذي يُبقي على شباب عينيه، واليوم ذلك النهم مُتقد جدًّا، لقد طال انتظار هذا اليوم عليه وهو الآن بالكاد يستطيع الجلوس على كرسيه من شدة حماسه لمعرفة ما نتيجة التجربة. لم يغمض له جفن في

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

تلك الليلة كغلام ينتظر بزوغ الفجر ليذهب في رحلة مدرسته الأولى.

رفع الهاتف الداخلي وطلب مساعدته في الخارج وقال لها:

- هل حضر أطراف العقد الشهير يا عزيزتي؟

مساعدته:

- نعم، حضروا يا سيدي.

الأستاذ عارف:

- ممتاز، أنا متحمس جدًّا. وهل تأكدتِ من المحامي ثانيةً أنهم جميعًا قد أتمُّوا التجربة؟

مساعدته:

- بالطبع يا سيدي، فلقد كان فريق العمل يراقب التزامهم من حين لآخر، ولكن كما طلبت منَّا وكما ينص العقد ممنوع أن نخبرك عن حالاتهم لتستطيع أنت أن تقيِّم النتائج دون تأثير أو سابق تفكير لكي لا يتأثر تحليلك وقراءتك الموضوعية للتجربة.

قال الأستاذ عارف:

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

- لا أدري كيف استطعت أن أحتمل هذا، كان صعبًا جدًّا ولكن هنا اليوم. أدخليهم عليَّ واحدًا تلو الآخر لإجراء المقابلة الأخيرة قبل توزيع الثروة. ولنبدأ بالجميلة وتد.

مساعدته:

- حسنًا يا سيدي، أُدخِلها عليك في الحال.

الأستاذ عارف:

- في الانتظار.

وما إن أغلق الهاتف الداخلي مع مساعدته حتى تحرَّكت ممسكةً باب غرفة الاجتماعات ودخلت عليه وتد.

راح يراقبها بدقَّة في الخطوات الخمس التي بين الباب وكرسيها نفسه، الذي تركته منذ عشرة أعوام.

في هذه الخطوات سمع طرقات كعبها العالي على أرض المكتب، فسبقته عيناه دون أن يشعر إلى ساقيها الناعمتين بلونهما البرونزي المثير يخرجان من تنورة سوداء تنتهي تحت ركبتيها. يعلو التنورة السوداء قميص أبيض ضيِّق لكنه محتشم تلك الحشمة المحيِّرة وفي يدها حقيبة باهظة الثمن بنفس لون والعلامة التجارية الفاخرة لحذائها عالي الكعب.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

بعد أن صبَّحت عليه بالخير وتلقَّت منه الصباح، جلست وتد على كرسيها والأستاذ عارف يراقب تفاصيل حركاتها وسكناتها.

سحبت نظارتها الشمسية الزجاجية ووضعتها على الطاولة فاسترق نظرة سريعة إلى عينيها فأحس أنها لم تخلع نظارتها، بدت عيناها وكأنها من زجاج تمامًا كالنظارة. وبدأ المقابلة قائلًا:

- كيف حالك يا وتد؟

وتد:

- أنا بخير، الحمد لله.

الأستاذ عارف:

- أتذكرين شروط المقابلة الأخيرة من العقد؟

وتد:

- بالطبع يا سيد عارف. سأخبرك الحقيقة خالصة كما أراها وأشعر بها، سأخبرك تمامًا ما دار في داخلي وما يدور، سأجعلك تعبر مظهري هذا الذي راقبته وتغوص في أعماق نفسي وروحي. ذلك إن أعانتني اللغة وقدرتي على التعبير عن هذا الكم من الحقيقة العارية، سأخبرك كل ما

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

تريد أن تعرف وأُشبع نزوتك وشهوتك تجاه الحقيقة وإلَّا ما خضنا هذه التجربة اللعينة أصلًا.

الأستاذ عارف:

- اللعينة؟! لماذا تقولين هذا؟ ألم تعجبكِ الحياة بلا ألم؟

وتد:

- في بادئ الأمر بدت لي كأنها جنَّة لا توصف لذلك لم أنسحب في السنة الأولى. والحق أخبرك، أعتقد أني لن أستطيع أن أكلمك عن الحياة بلا ألم، فهي بحق لم تكن حياة، لعل راغب والطفلة غد سيخبرانك بما تودُّ أن تعلم وبما أنت باحث عنه أكثر مني.

عارف:

- لم تكن حياة، وكيف ذلك؟

وتد:

- تدري أننا وقَّعنا عقدنا وأنا في بداية قصة حب حياتي، وفي السنة الأولى لم يكن هناك ما ينذر بالحاجة إلى الصبر على الألم، والتزامًا بالعقد بدأت أنا بيدي أدفن فرصة الحب هذه وأخنقها شيئًا فشيئًا ولكن بسرعة.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

يقولون إننا لا نستطيع أن نسيطر على الحب بداخلنا، لا أفهمهم. بالطبع نستطيع فالحب في أعماقنا كغيره من المخلوقات في الدنيا، إن تغذى نما وكبر كما ينمو أي مخلوق وإن أهملته ولم تلتفت له مات واندثر.

عارف:

- ولكن لماذا تقتلينه؟

وتد:

- وهل هناك حب بلا ألم يا سيد عارف؟ بدأت إنذارات ألم نهاية البداية تلوح لي من بعيد بعد شهور الحب الأولى، فجلست وتأملت عواقب إبقاء الحب حيًّا وتأثيره على عقدنا.

عمَّا قريب سيؤلمني إن صرف اهتمامه الكامل عني وعن تفاصيلي كبُرت أو صغرت. ألن يؤلمني إن لم أصبح دنياه كما أنا اليوم؟ أو إذا ما فاته التعليق على قصة شعري ولون أظفاري أو فستاني؟

ماذا سيحدث إن طلبت هاتفه بشغف ولم يجِب، بل ماذا سيحدث إن أجاب بشغف أقل من شغفي أو بصوت بارد منشغل؟ ألم انتهاء البداية قاتلٌ إذا كنت أنت المحب الأكبر. فرحت أُلجم حبِّي وأسيطر عليه قبل أوان خاتمة

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

البداية وكأني في سباق معه، مَن سينجح في أن يكون المحبوب أكثر مِن أن يكون المحب. إن ألم عدم التقاء مستوى الحب ألم عظيم فرحت أهرب منه بشتَّى الطرق.

دعك من البداية وشغفها، ألم الغيرة على مَن نعشق سينهي عقدنا بالتأكيد. ألم عظيم مجرد تخيُّله حتى وإن كان على بُعد أميال لا يُطاق، ألم الغيرة لا يميز بين الخيال والواقع.

غابت عيناها في ذكرى لم تستطع إلَّا أن ترويها، فاستطردت:

- كنَّا في عشاء عادي مع الأصدقاء، ودخل علينا صديق قديم للمجموعة التي كان منها حبيبي آنذاك. يبدو أنهم كانوا قد فقدوا الاتصال ببعض على مدى سنوات، وكان ذلك الصديق قد تزوج في سنين غيابه عنهم واليوم عاد وزوجته.

شابَّة فيها روح هائجة تشعُّ من بين مسام خلايا جلدها، دخلت وكأن طاقتها تعدي المتصالحين مع أنفسهم وتغيظ المعقدين والخبثاء والعالقين في أنفسهم. لأجل المصادفة وقع كرسيها مقابل كرسي حبيبي. دارت بداية السهرة وأنا على أهبَّة توتري من رونقها، فهي كأنها مغناطيس لأعين الرجال وأحاسيسهم دون أن تنطق

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

بكلمة أو فعل خارج عن الخلق والرقي ولو قيد أُنملة، ولكنها هكذا تجذبهم.

والآن قد نسيت ما كانت تلك المزحة التي ألقاها حبيبي ولفتت انتباه الجميع لخفَّة ظلِّه، واستطرد، فأذاب الضحكُ بعضَ المحظور وبدأ التناغم اللحظي بينها وبينه. بدآ بتداول القصص على الملأ دون أي خدش لمشاعري ولشرقية زوجها، ولكني مع ذلك شعرت وتخيَّلت أمرًا عجيبًا. تخيَّلت أن روحه خرجت من جسده ودعت روحها للخروج أيضًا فخرجت، كأن روحيْهما عاشقان يتعرَّفان في لحظة جنون خارج هذه الدنيا، كأن روحه دعت روحها للرقص فذابتا في موسيقى لا يسمعها غيرهما. ولكنهما في الواقع لم يفعلا أي شيء من هذا.

شعرت بأن كرسيَّ الذي تحتي جمرةٌ تزداد صلابة وبدأت أتعرَّق من الداخل ويصفرُّ لون دمي وينعكس على وجهي دون سيطرة منِّي مهما حاولت. ألم غريب لكنه لا شيء محدد أستطيع أن أزيله فسارعت لإزالة كل الحب. وأقسمت ألا أسمح بالاقتراب من هذا الشعور مرة أخرى.

وهكذا انتهى الحب بالسيطرة عليه. مع كل العبودية التي في الحب إلَّا أنه لا يطيق إلَّا أن يبقى حرًّا طليقًا بداخلنا، يتلاعب بنا بجنونه ورعونته وغبائه أحيانًا. في اللحظة

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

التي نحاول لجمه أو السيطرة عليه فإنه يبدأ بالتململ إلى أن يفرَّ هاربًا من جوفنا مع أوَّل فرصة. وإعادته تقارب المستحيل تمامًا كما هي محاولة إعادة كائن ذاق طعم الحرية والجنون ولا يعود إلى مكان قيَّده إلا إذا كان قد مرض أو انكسر.

باختصار، للبعد عن الألم، بقيت محصَّنة داخل أسوار عالية شيدتها، تظهر قوَّة وشموخًا للخارج وهي في حقيقة الأمر تخفي خوفًا ووهنًا وهروبًا. آه يا سيدي لطالما اعتقدت أن المتحصنين خلف الأسوار هم الأقوياء الراسخون في أماكنهم ولم يخطر ببالي يومًا أنهم هم الهاربون ركضًا داخل هذه القلاع مهما بدت أنها هي الثابتة. وهذا الأمان من الألم هو بداية الوحدة.

الأستاذ عارف:

- ولكن ألا يُذهِب الوحدة الأهل والعائلة؟

ردَّت وتد شبه ساخرة:

- وهل هناك عائلة بلا ألم؟

إذا كان الهروب من العشق ضروريًّا لتجنُّب الألم فإن الهروب من العائلة أشد ضرورة.

الأستاذ عارف:

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

- وكيف هذا؟

وتد:

- إن الهروب منهم واجبٌ لثلاثة أسباب على الأقل. أولًا، تهرب من ألم العيش بينهم، ثانيًا، تهرب من ألم انتقال ألمهم إليك، وثالثًا، تهرب من ألم العيش بعدهم.

فأمَّا ألمُ العيش بينهم فيكون من ثقل طباعهم، وثقل حبِّهم لك، ومتطلباتهم وألم احتمال أهلهم، وانتقاداتهم اللاذعة. وعدم مراعاتهم لكل ما أنت متميِّز أو مختلف عما تصوروا في مخيلتهم أو خلفيتهم أنك يجب أن تكون. فلا يزالون يقاومون وجودك أنت، وإن فرضت وجودك فإنك موصول بألم خذلانهم. وأضف إلى ذلك آلام الحياة اليومية بتفاصيلها السخيفة ولكن لتكرارها على مدى عشرة أعوام ألم متراكم قد ينفجر في نفسك أو جسدك.

أمَّا بالنسبة للسبب الثاني، بعيدًا عن احتمال إيذائهم لك فإنك تدري بقرارة نفسك وبشكل متجدد أنك أنت دنياهم وحبُّهم وأنت رونق حياتهم وبالتالي فأنت تبادلهم هذا شئت أم أبيت. وبذلك يا سيدي فإن كل ما يصيبهم من ألم ينتقل إليك في التوِّ واللحظة سواء اشتكوا أو لم يشتكوا. وكأن أجسادنا وأرواحنا امتدادٌ لأجسادهم وأرواحهم.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

فإذا عشت معهم خوفًا يخافونه فإنه يصيبك مهما ادعيت الجرأة، وإذا عشت معهم ما يبهج قلوبهم فإن قلبك يرقص فرحًا مهما ادَّعى الرصانة.

ابتلعت ريقها للحظة قبل أن تستكمل:

- قبل توقيع عقدنا يا سيد عارف تذكرت أنَّا قد اضطررنا إلى الذهاب بأبي إلى المشفى لعارض طفيف ألمَّ به. وفي اليوم الأوَّل أتى الممرض ليثبِّت الأمصال في يديه فوقف فوق سريره، وما إن أدخل الممرض نصل الإبرة تحت جلد أبي صرخ أبي صرخة خفيفة فجائيَّة. دعك من تلك اللحظة المؤلمة التي تشد بها عضلات وجهك وكأن نصل الإبرة قد دخل في جلدك أنت، ولكن المؤلم فعلًا كان نظرتي في عيني أبي. لم أكن أتوقَّع أن أرى ما رأيت، فبدل أن أرى في عينيه ألمًا جسديًّا رأيت فيهما خجلًا من ألمه أمامي. كأنه اعتبرها لحظة انهزام للبطل الذي ظل طوال حياته مُصرًّا على أن يكونه أمامي. كأنها كانت لحظة انكساره أمام حتميَّة كان يناضل لعدم حدوثها بجبروت ولكنها اليوم قد انتصرت عليه، فهو مُلقى في سرير مستشفى ويصرخ ألمًا من وخز إبرة لا بد منها.

لا أدري مدى سخافة الموقف أو عمقه، ولكنه كان مؤلمًا بحق وللحفاظ على عهدنا بالهروب من الألم، كان عليَّ ألا

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

أعيش مع أهلي هذه التحولات اليومية من مرور الزمان الذي يمسك بيده الصحة وكأنهم عشاق متلاصقون يذهبون معًا أو الزمان يذهب فتتبعه الصحة.

أمَّا ألمُ العيش بعدهم لا أعتقد منه مفرًّا، لذلك كل ما فعلته أني تمنيت ألا يموتون خلال التجربة لأني سأُهزم بالتأكيد.

لذلك كله، فقد كان عليَّ أن أنتقل للعيش وحدي ولا أغوص في تفاصيل حياتهم ولا أتلقَّى منهم ما يؤلمني سواء أذى منهم أو أذى يقع عليهم. فصرت أرسل إليهم الأموال، وأبتعد شيئًا فشيئًا وبهذا اكتملت عناصر الوحدة.

صمتت هنيهة ثم أردفت:

- أتدري يا سيد عارف، لقد اكتشفت أمرًا بديهيًّا جدًّا أول ثلاث سنوات من هذه التجربة اللعينة.

الأستاذ عارف:

- وماذا هو؟

وتد:

- معظم آلامنا، بعيدًا عن الآلام الجسدية، تأتينا من مشاعرنا، ومعظم مشاعرنا تأتينا من الناس الذين نُحبهم، وبذلك

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

فإنه لقتل آلامنا علينا أن نقتل مشاعرنا، ولقتل مشاعرنا علينا أن نبتعد عمن نحب. ولكن مَن نحب هم الحياة، لذلك قلت لك إن حياة بلا ألم لم تكن حياة.

فقال الأستاذ عارف بصوت فيه شيء من الندم والذنب مصحوبيْن بالبرود الكاذب:

- شكرًا لكِ على هذا الصدق والدقَّة، يمكننا الآن المباشرة بالإجراءات لتأخذي نصيبك من الثروة.

فقالت وتد:

- الآن فهمت لماذا لا تعنيك ثروتك، لعلك قد أمضيت اليسير من عمرك في الهروب من الألم، والآن أصبحت مثلك، سآخذ الثروة لكنها لا تعنيني، أعتقد أن الثروة بلا حياة لا تساوي شيئًا غير الخوض في البحث عن المعنى.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

الفصل الثالث

خرجت الآنسة وتد بعد أن تناولت نظارتها وودَّعت الأستاذ عارف، الذي أصابه ثقلٌ عميقٌ وضيقٌ في صدره فوقف ودار حول الطاولة موجِّهًا نظره إلى نافذة الغرفة العالية الواسعة المُطلة على المدينة والدنيا بأسرها، وأطلق تنهيدةَ الاستعداد لمقابلة الشاب راغب. فطلب السكرتيرة وأمرها بإدخاله عليه.

وإذ بشابٍّ شديد السمنة بطيء الخطوة يدخل متثاقلًا. فراح يراقبه الأستاذ عارف فوجد أن لا تخلو بقعة من جسده إلَّا ونُقش عليها وشمٌ باللون الأزرق الداكن أو بالألوان جميعها. بعضٌ منها نقوش لكلمات وجُمل لها معنى وأخرى بلا معنى مفهوم، صور تبدو نقيَّة، وصور واضحٌ أنها أُضيفَت فوق صور سابقة. نظر إلى وجهه فوجده مُخرَّم بالحديد والحلقات ويلفُّ

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

عُنُقَه سلاسلُ وأغلالٌ وكأنها تَجلٌّ لنوع جديد من العبودية وهو عبودية الحرية نفسها وتأليهها، لدرجة أنها صارت تلفُّنا بسلاسل من جديد كأننا ما تحررنا أو تحررنا بالاتجاه الخطأ، أو كأن الحرية التي في أذهاننا ليست موجودة ونحن عشَّاق عبودية بأي صورة من الصور.

دقق الأستاذ عارف في هذا الشخص باحثًا عن راغب فما وجد سوى ملامح بعيدة طواها الزمن كأنه قد كبر ثلاثين عامًا وأكثر. بدت عيناه اللتان كانتا تنبضان بالرغبة والإنجاز والثورة كأنهما ميتتان، كأن سواد الحُدق قد سال من عينيه ليلطخ جفونه. وحُدق عينيه تزوغ في الغرفة كأنه غائب كمدمن عتيق لكل أنواع المخدرات.

قاطع راغب تأمُّل الأستاذ عارف قائلًا بحدة:

- لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

حاول الأستاذ عارف تخطِّي مفاجأته، فردَّ سريعًا بابتسامة باهتة:

- لا يا صديقي، فقط أراك قد تغيَّرت كثيرًا.

راغب:

- عشر سنوات، طبعًا تغيَّرت.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

فقال الأستاذ عارف:

- أخبرني عن الحياة بلا الصبر على الملل؟ كيف كانت هذه السنوات العشر؟ ماذا فعلت بها؟

رد راغب وكان بالكاد يستطيع التركيز ليجيب، كأنه على طرف الجنون ولكن ما زال بعضُ عقله يقاوم الجنون التام:

- كانت مفعمة بالحياة، لا أستطيع أن أذكر بالتحديد كيف أمضيتها، ولكني على ما أذكر فإن السنة الأولى كانت تشبه النعيم. كلُّ ما مللت من أمرٍ ذهبت إلى غيره وكان ما بعده يعطيني متعةً مضاعفة لذلك ما فسخت العقد فيها.

الأستاذ عارف:

- ولو كان لك أن تفسخه في السنوات التسع الباقيه لفسخته؟

راغب:

- بكل تأكيد.

وراح راغب يُلقي كلَّ ما في جوفه منِ كلام وأفكار وحرقة كأنه تنينٌ ينفث النار للخارج مخافةً أن تبقى فيه:

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

- بدأتُ أرى حياتي تتدهور بكل تفاصيلها، لم يخطر ببالي يومًا ولا أعتقد أنه خطر ببال أحد أن ذهاب الملل تمامًا هو انقضاء الحياة.

بماذا تريدني أن أبدأ؟ نبدأ بالوشوم المُبالغ فيها التي بدأت بالتحديق إليها منذ أن دخلت عليك؟

هذه الوشوم بدأت في لحظة هربت بها من الملل من شكل يدي العادي. عامًا بعد عامٍ مللتُ من الوشم السابق فإمَّا غيَّرته وإمَّا زدت وشمًا آخر، حتى أصبح وشمُ جلدي كالجوكر الذي أستعمله عندما أتواجه مع الملل وجهًا لوجه وما لي حيلة أخرى، وصار الوقت بين الوشمين يتقاصر إلى أن أصبح الوشم الجديد لا يزيد شيئًا من المتعة، فكما ترى خرمت وجهي بالحديد.

تنهد بضيق قبل أن يستطرد:

- أم أبدأ بجسدي السمين هذا؟

هو نتاج اختفاء الملل. كأن جوفي كان هو الفراغ ذاته الذي في روحي أو عقلي، فكلما ملَّتْ روحي أو عقلي رميتُ في جوف جسدي الطعام لعلَّ سلوى المعدة ومتعة المضغ والابتلاع تقضي على ملل الروح وكانت تنفع في الحقيقة. لذلك ما استطعت أن أُلجم نفسي عن أنواع الطعام كافة

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

طوال الوقت، وكلما حاولت أن ألجأ إلى الرياضة كان الملل بانتظاري في رابع أو خامس مرة أذهب فيها إلى النادي فكان الهروب من ملل المثابرة لا بد منه.

أم أبدأ بكيف خسرت وظيفتي؟ وهل هناك من عملٍ تستطيع أن تعمله بلا ملل؟ مهما كان شغفك في بادئ الأمر فإنه يتلاشى بسرعة فائقة ويبقى فيه ذلك الملل اليومي الذي يفرق بين الأيام العادية وأيام الإنجاز أو التحدِّي. ولا يمكن أن تصل إلى الإنجاز والتميُّز دون الأيام العادية المُملة. فرحت أتنقل من شغف لشغف وما استعطت إنجاز أي شيء هروبًا من الملل.

زاغت عينيه أكثر قبل أن يستطرد:

- أم أبدأ بالحب!

أنت أدرى الناس عن كمِّ الكُتب والكُتَّاب الذين أرهقونا وضجرونا من وصف بداية الحب وشغفه وكيف تأتي مراحله اللاحقة مثقلة بالملل من الأحبَّة وبذهاب شعاع الزمن الذي نقضيه معًا، وبكشف الغموض وتوقُّف الانبهار. ففي كل مرة اقتربت من اكتشاف حب حياتي بدأ الملل يهددني في الشهر الثامن أو التاسع فرحت أخون، وإذا ما خنت فإني أتنقَّل من حبٍّ إلى حبٍّ حتى

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

صرت أخجل أن أسمِّيه حبًّا، مع أني والله كنت باحثًا عنه بصدق وكنت أصرُّ على الوفاء لكن كان فيه مللٌ فخفت أن تضيع التجربة. ولك أن تتخيَّل إلى ماذا قد يأخذك عدم الصبر على الملل في الشهوة الجنسيَّة، فإني جربت كل المتاح والممنوع هاربًا من الملل وكالعادة في بادئ الأمر اكتشاف ممتع وبعد ذلك تهرب منه كما هربت من الذي قبله.

حتى إني لم أستطِع أن أقيم علاقة مع إنسان، كلهم يصبحون مُملِّين. دعك من الناس حتى علاقتي مع الأشياء، صرت أتنقل من بيت إلى بيت دون أن يربطني بالمكان شيءٌ. وأنا الذي قضيت أوَّل عشرة أعوام من نُضجي أقاوم وأرفض أن يقطع أبَي أيَّ غصنٍ من شجرة في وسط حديقة بيتنا لكيلا يتغيَّر شيءٌ. أذكر إحدى أُولى المعارك التي انتصرت بها كانت عندما منعت أبي أن يبيع سيارته لأن فيها ذكريات طفولتي. واليوم لا أستطيع أن أرتبط بأي ثابت لأني أدمنت التغيير السريع ولا أستطيع الصبر على الملل. أغيِّر سيارة كلَّ عدة شهور وأزور بلدًا كلَّ شهر وأملُّ منهما في أيامٍ.

أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يُكمِل:

- أم تريدني أن أبدأ بالهوايات!

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

والله ما أتممتُ كتابًا، ولا تعلَّمتُ منه شيئًا، ولا أنهيتُ فيلمًا، حتى إني لم أعد أذكر أني أكملتُ فيديو قصيرًا لا يتخطَّى الدقيقة على وسائل التواصل الاجتماعي. وكيف أفعل هذا دون نعمة الصبر على الملل.

كنت أتنقل بين المتع الآنية حتى أضجر وكان زمن ضجري يتناقص بشكلٍ حادٍّ، فما كان يُسلِّيني سنين أصبح يُسلِّيني أشهرًا وما كان يُسلِّيني أشهرًا أصبح يُسلِّيني ساعاتٍ وما كان يُسلِّيني ساعاتٍ ما عاد يُسلِّيني على الإطلاق. وهذا هو العجز الذي تراه في عيني.

عندما فقدتُ الصبر على الملل صرتُ أختصر الزمن، فكبرت بسرعة فائقة، لعلَّ تباطؤ السنين وتأجيل الكبر يكمُن في الانتظار. الانتظار الذي تضربه سرعة الهروب من الملل فيذهب الشباب وتتقاصر الحياة الحقيقية في حين يصرُّ الطب على زيادة حياة الجسد. يا لهذا التناقض الغريب، في غياب الصبر على الملل تمر الحياة بسرعة حتى وإن تأخر الموت.

هذا هو الواقع، لذلك كنت بحاجة إلى الخروج من هذا الواقع الذي فيه ملل حتميٌّ، وهكذا بدأت رحلة المخدرات ولن أزيد حرفًا...

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

جلس الأستاذ عارف صامتًا لا يدري ماذا يقول، ولا يدري كيف حتى يفكِّر ليقول، فلجأ إلى ما حفظ أنها الجملة الأخيرة من اللقاء:

- شكرًا لك على هذا الصدق والدقَّة، يمكننا الآن المباشرة بالإجراءات لتأخذ نصيبك من الثروة.

فرد راغب:

- بما أن صرفك على التجربة ينتهي اليوم وأنا بحاجة إلى المال لأشبع إدماني على السرعة سآخذ نصيبي. ولعلِّي أستخدمها لأعيد لنفسي بعض القدرة على الصبر على الملل، أي على الحياة.

وقام راغب عن كرسيه خارجًا، فوقف الأستاذ عارف كأنه يزيل عن جسده أحمالَ قصة راغب، وأخذ خطواته حول الطاولة ونظر عبر النافذة التي تطل على المدينة والدنيا كلها وأطلق تنهيدته.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

الفصل الأخير

جلس الأستاذ عارف على كرسيه وهو يستعد لآخر مقابلة وقد أرهقه كم المعلومات والأحاسيس والذنوب التي شعر بها في المقابلة الأولى مع الآنسة وتد، والمقابلة الثانية مع الشاب راغب. رفع سمَّاعة الهاتف الداخلي طالبًا من السكرتيرة أن تُدخِل عليه أسرة الطفلة غد، التي كانت في الثامنة من العمر يومَ توقيع العقد.

فتح الباب ودخل والد غد ووالدتها ولم تكن هي معهما. دخلا بصمت ويدُ الرجل تُحيط المرأة حول كتفها وهي تتمايل تكاد تفقد توازنها كمَن هُد حيله، ووجهها في الأرض لا تكاد تنظر إلى السيد عارف، ومع ضعف جسدها يشعُّ منها حقدٌ دامس السواد يكاد ينفجر في الغرفة.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

فأقعدها زوجها وألقى التحية على السيد عارف فرد عليه الصباح وسأل ذاك السؤال الذي ما كان عليه أن يسأله:

- وأين غد؟

فانفجر حقدُ الأم وتحوَّل كل وهنها إلى قوَّة وثورة فصرخت ساخطة بكل عزمها بوجه الأستاذ عارف:

- غد! تسأل عن غد؟ بئس وجهك وبئس تجربتك يا لك من إنسان ذميم لعين! غد انتحرت منذ عام.

فصُعق الأستاذ عارف وسقط في كرسيه وما عاد يسمع كلَّ الزعيق والصراخ التي تلقيه أمها عليه. وعبثًا يحاول الأب إسكاتها ويقول بصوت خافت:

- نحن مذنبون أيضًا، نحن وافقنا أن نخوض التجربة ونرفع الحرمان تمامًا عن غد.

راحت الأم تنهال عليه وتفرِّغ غضبها وشيئًا من ذنبها عليه، وهو صامتٌ يتلقى كلامها وهو يبتلع صدمته، فغالبًا ما نبالغ بلوم غيرنا ونعظم ذنبه بهدف دفين داخلنا أنه ربما تتضاءل ذنوبنا التي اقترفناها بجوار ذنبه الذي نعظمه. ودخلت على صراخ الأم السكرتيرة والمحامي وأخرجا الأم المُنتحِبة بهدوء خارج غرفة الاجتماعات، أسقياها بعض الماء.

وقبل أن يلحق بها زوجها اقترب من أُذن السيد عارف وقال:

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

- لا ندري إن كانت غد قد انتحرت لأنها ما وجدت ما تنتظره في الحياة فقد حرصنا على أن لا نحرمها من شيء، وكانت تنال كلَّ ما تتمنَّى ولعل بهذا قد ذهبت قدرتها على التمنِّي وما عادت تطيق الانتظار بلا معنى، هذا احتمال. والاحتمال الآخر أنها ما إن بدأت تصطدم بواقع الحياة خارج المنزل وخارج التجربة واكتشفت ما فيها من حرمان حتى قررت اعتزال هذه المعركة الخاسرة بالنسبة لها فهي ما اعتادت الحرمان ولا فهمته ولم تكوِّن مهارة التعاطي معه. أعتقد أن في الحرمان كمًّا من الحياة أكثر وأعمق من الحياة في المنال السهل وفي هذه الوفرة التي تمحو معاني المتعة ومعاني الاستحقاق الحقيقي بعد الانتظار والتضحية والمثابرة.

صمت لحظات وتنهد قبل أنِ يُردف:

- سواء كان الاحتمال الأول أو الثاني، فإنَّا قد قتلنا غدنا يا عزيزي.

وخرج الأب من الغرفة تاركًا الأستاذ عارف يتعافى من صدمته ولكن ما كان يناضل للتعافي منه هو شعوره بالذنب القاتل، ولا يخفف الذنب إلَّا الاعتراف به.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

فوقف الأستاذ عارف وقد باغتته لحظة جنون من هول الحقيقة، فانتصب أمام تلك النافذة الواسعة التي تطل على المدينة والدنيا، كأنه يخطب بالناس في البيوت والشوارع والهواتف والشركات والمطاعم والحانات والغرف المغلقة والمدارس والجامعات:

- أعترف أمامكم جميعًا أني مذنب، لقد تسببت بانتحار الغد، ولكني فعلتها من أجلكم لعلَّكم ترجعون عما أنتم سائرون به. لقد مات الغد بسبب هذا الهروب المجنون من الصبر على الألم والملل والحرمان.

أيها الهاربون مهلكم، أنتم لا تهربون من الألم بل من الحب على اختلاف أنواعه، من الأوتاد التي نشد بها أزر بعضنا لنواجه الحياة معًا ونجعل منها معنى. أنتم تلقون بأنفسكم تحت عجلات الوحدة الفتاكة التي تسحقكم. أنتم لا تهربون من ألم الملل، بل تهربون من الأيام التي هي حياتكم، من الانتظار الذي يزيد الرغبة بالإنجاز وتلقون بأنفسكم تحت براثن السرعة التي تسحقكم وتسحق رغبتكم بالسعادة التي تبحثون عنها.

كان في رأسي سؤالٌ واحد قبل التجربة واليوم في رأسي ألفُ سؤال.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

هل ينتهي الحب إذا ما أبقينا الصبر على الألم؟

هل تفنى الرغبة في العيش إذا ما تعلمنا الصبر على الملل؟

هل نقتل غدنا إذا ما علمناه الصبر على الحرمان واحتمال الانتظار على رغباته الآنيَّة؟

أيها الهاربون بجنون مهلكم، دعونا نفكِّر...

وعاد الأستاذ عارف إلى كرسيه بعد أن انتهى من «خُطبته» التي لم يسمعها أحدٌ، وكان قد استطاع أن يبرر بهذه الخطبة شيئًا من ذنبه، فقال لنفسه ليهدأ:

- لعل نتائج هذه التجربة مبالغٌ فيها...

فردت عليه نفسه:

- أنت تدرك أنهم سائرون في التجربة جميعًا، ولكن عجزك عن إيقافهم يجعلك في حاجة إلى تبريرها بالشك.

فرد عليها باسمًا:

- إيقافهم، وهل تعتقدين أني أستطيع إيقافك أنت عن السير في التجربة.

https://t.me/osn_osn

مكتبة إيلينا
Elena book

حوار مع الطريق

https://t.me/osn_osn

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أنوار

https://t.me/osn_osn

Scan me!

مكتبة إيلينا
Elena book

ليس هذا ماكتبت

د. خالد غطاس

خرج ياسر من شقة حبيبته علياء الجامعيَّة بعد أن قضى معها ساعاتٍ يحاول إقناعها بالعودة. استنفد كلَّ الحيل والوعود والأحلام الورديَّة المستقبلية لثنيها عن قرارها ولكنها رفضت تمامًا. كانت هذه الصدمة الأولى التي يتعرَّض لها ياسر، كان لا يزال في سن الثالثة والعشرين تقريبًا. لم تكن صدمة خيانة ولا صدمة جرح ولكنها صدمة رفض من إنسانة اعتبر احتمالية رفضها له من مستحيلات الدنيا. كانت علياء تتنفَّس ياسر بكل ما في الكلمة من معنى. لقد علَّمها مَن هي اليوم وصنع بتأثيره عليها مستقبلًا وهويَّة وكانت تصغره ببضعة أعوامٍ، وكانت هذه العلاقة الحقيقية الأولى لكليهما.

كان حبًّا بريئًا مريحًا مرحًا لعامين كاملين، كانا معًا في كل مكان الدرس والنزهات وتكوين الصداقات والأحاديث وانتقاد الدنيا والأمل بإصلاحها، كان في حبهما العمق الذي لا يتخطَّى حدود العمر والسطحية التي لا تتخطَّى ذاك أيضًا. ولكن مهما

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

كان الحب جميلًا إلَّا أنَّ له وزنًا ضاغطًا إذا خرج عن مسمَّى الحب واتَّسم بالاعتماد التام والتعلُّق الشديد، وهما أمران يحتاجان إلى مجهود إيجابيٍّ لمقاومتها. من طبائع بعض البشر أن يستسهلوا الاعتماد على مَن يثقون به، وكان ياسر وعلياء من هؤلاء البشر.

مع أن ياسر كان يكبرها ببضع سنين وشهادة وتجارب شارع عملية، إلا أن علياء علَّمته كيف يتكلَّم ليُسمع، علَّمته الثقة بالنفس وحب الانتصار، علَّمته عن المرأة ورقَّتها، علَّمته أن المشاعر أمرٌ غاية في الجديَّة، علمته كيف وأين يرتدي ملابس تُناسب كل مُناسبة يذهب إليها مع كرهه الشديد للرسمية، علَّمته أن الذكاء لا يكفي، علَّمته الرقة في الحديث والانتباه، وأكثر ما علَّمته كان فن الأخذ.

ترك ياسر لعلياء كل أمور دنياه الحسيَّة، من درس ومهام وتقديم طلبات ودفع فواتير وبحث عن عمل أو جامعة أخرى بعد الإنهاء من رسالة الماجستير ومساعدته في تنفيذ خطَّته لمستقبل يتصوَّره. ولم تقتصر على هذا فقد ترك لها أيضًا مسؤولية اختيار المطاعم والحجز فيها، ومسؤولية اختيار طريقة لبسه، حتى إنه ما كان يميز أي الألوان تتناسق مع أيها، ومسؤولية ترتيب النزهات مع الأصدقاء، ومسؤولية تذكيره بمعايدة الأهل وتهذيب سلوكه وعلاقته بهم، حتى أصبحت علياء مديرة حياته بكاملها.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

بالمقابل علَّمها ياسر كيف وعلى ماذا تضحك، علَّمها فن الجنون واللامبالاة، علَّمها كيف تواجه الدنيا بغير مواجهة، علَّمها معنى الوطن، والطموح الذي لا يحدُّه عقل، علَّمها كيف تترك سريرها بغير ترتيب وملابسها على البلاط وقلمها في جيبها بلا مقلمة، وأكثر ما علَّمها كان فن العطاء وعلَّمها كيف كان النفاق جميلًا.

مِن ناحيتها تركت علياء لياسر كلَّ ما هو خارج التفاصيل اليوميَّة فاعتمدت عليه تمامًا في مشاعرها. ما عادت تعرف كيف تشعر بذاتها دونه، كأنه وتفاصيله اليومية محور الكون. ما عاد يمر الوقت دونه، إذا صادفها أي جديد غير متوقَّع تلجأ له، كان أمنها ومرتع كل مشاعرها المتضاربة من خوف وتوتر ومواجهة وقوَّة وضعف. وكان يبعث فيها ثورة وطاقة تواجه بها الدنيا، حتى أصبح ياسر كلَّ حياتها.

ومع مرور الأيام صار الاثنان يلقيان بوزنيْهما كاملًا على بعضهما، حتى ثقل الحب على ياسر أكثر مما ثقل على علياء. فبدأ يرى في اعتماده الحسيِّ الشديد عليها ضعفًا يكرهه وبدأ يرى في اعتمادها العاطفي الشديد عليه أسرًا يخنقه. فراح يفعل كما تفعل الرجال، يأخذ بغير عرفان ويعطي مع نقمة حتى بدأت تشعر هي أنها حمل عليه. ولكن لعظم حبِّها له أو تعلقها به صارت تبالغ في العطاء وهو يبالغ في رؤيتها كأسرٍ

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

حتى إنه بدأ بالمراوغة، ومغازلة الصديقات ليستشعر حريته، لكنه لم يخنها.

أعزائي القرَّاء لن أطيل عليكم القصة أكثر من ذلك، لكن أخذتني التخيلات والذكريات المصطنعة والمخاوف المحتملة والكلمات.

طلب ياسر الافتراق بدافع وهم الحرية فكسرها وها هو ذا اليوم يتوسَّل إليها لتعود وهي ترفض. خرج من شقتها وما إن وطأت رجلاه أوَّل الطريق الذي بين شقتيْهما حتى اعتراه خوفًا شديدًا من العيش دونها كأنه صدَّق للتوِّ أنها فعلًا لن تعود.

ومن شدة الصدمة والوحدة والخوف والحنين الذي شعر بها ياسر سقطت دمعة من عينه اليسرى مُحمَّلة بكل عواطف الكون، كأنها اختصار وتجمُّع مُركَّز لكل مشاعر الناس منذ أن وجدوا. تخيلوا أنها عُصارة كل الحياة تجمَّعت في نقطة ماء واحدة. وما إن لمست هذه الدمعة أسفلت الطريق الذي تحت قدميه حتى دبَّت في الطريق الحياة كأنما كم الحياة في هذه الدمعة قد أحيا الطريق بعد موتها.

فسمع ياسر صوتًا لا يدري مصدره يقول:

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

- ما بك يا ياسر؟

ومِن شدة غرقه في خوفه من خسارة علياء لم يخف، بل راح يحاور الصوت بهدوء:

- مَن أنت؟

قال الصوت:

- أنا الطريق.

ياسر:

- أي طريق؟

الصوت:

- الطريق الذي تحت قدميك.

فردَّ ياسر بصوت المتألِّم المُتفلسف:

- وأين تنتهين بنا؟

الطريق:

- أنا لا أنتهي يا ياسر، أنتم الذين تنتهون. أنا أرافقكم جميعًا منذ تُولَدون وتذهبون ولا أذهب، تمشون فيَّ إلى أن نتصادق ونتآلف وتنتهون فجأة أو بعد إنذار بسيط

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

وأبقى أنا. ولكن لماذا تتحدَّث عن الانتهاء؟ أنت ما زلت في بدايتك؟

ياسر:

- البداية! لا أعتقد أني سوف أخطو خطوة فيكِ دون علياء.

ردت الطريق بصوت فيه سخرية العارف من الجاهل:

- يا إلهي، كم رأيتُ مِن مشاةٍ عليَّ يعتقدون ما تعتقده أنت اليوم. يستبقون النهاية ويرون عجزهم في المضي بسبب تعلقهم بمحطة أو بمشاة آخرين، وما هي إلا بضع خطوات إلى الأمام حتى يبدأ هذا الخوف بالتبدد وتستدركون قوتكم على المضي. الخطوات التالية يا عزيزي ستكون بطيئة ثقيلة ولكنك مجبر عليها وستخطوها شئت أم أبيت وهذا أمر إيجابي جدًّا أحيانًا، ألا يكون لكم أنتم البشر خيارٌ.

ياسر:

- لا أعتقد أني كغيري من المارَّة.

الطريق:

- وكذلك كل المارَّة يعتقدون أنهم ليسوا كغيرهم من المارَّة، ولكني مِن تجربتي معكم بني البشر أرى أنكم

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

رغم اختلافكم تتشابهون إلى حد كبير مهما رفضتم هذه الحقيقة. إنك لا شك متميِّز وحُبُّك لعلياء متميِّز وعاطفتك متميزة وإلا ما كانت هذه الدمعة لتُحيني لكي أحاورك. فلكم سقطت عليَّ دمعـات تافهـة أو كاذبة لم أُلـقِ لصاحبها بالًا، ولكن يا عزيزي صدقني كلُّ الحب مُتميِّز بالنسبة للأحبة، وكل الأنفس مميزة بالنسبة لنفسها. على أي حال لن أجادلك الآن فإني أسير معك أو بالأحرى أنت تسير بي وستعلم وتشعر ما أقول لك بعد خطواتك القليلة القادمة.

ياسر:

- لا أعتقد أني سأنسى علياء ويستحيل أن أنسى كيف رفضت العودة لي مع كلِّ عروضي وكلِّ ضعفها السابق في حبي.

الطريق:

- يا معشر الرجال المارَّة، هذه لعنة حلَّتْ عليكم رأيتها فيكم مرارًا وتكرارًا. تتمتعون بعشق امرأة حتى إنها تكاد تعطيكم روحها وفجأة يحصل بداخلكم أمرٌ ما فلا تعودون تطيقونها وتبدؤون التقليل منها والتعظيم في غيرها. تجتاحكم الأنا القاتلة وترغبون في مداعبتها بالتجديد أو بالتخيُّل عن عظمتكم وأنكم تستحقون أكثر

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

مما تقدمه الحياة لكم. فتبدؤون بالنكران والتجاهل ويذهب بعضكم لسوء المعاملة وبعضكم للخيانة، مع أنكم تدركون أن ضعفكم تجاهها أقوى منكم.

الغريب أنكم لا تصدقون أن كرامة معظم النساء أعظم من حُبِّهن، مهما زاد حبُّهن. وعندما يزيد تجاهل العطاء والحب والأنوثة تبدأ هي بالتلويح بالرحيل، ولكن غروركم يعميكم عن هذا الاحتمال وتكذبونه حتى وإن صرَّحت به جهرًا وهددت به في غضب أو هدوء. وعندما تنتهون بغير فعل أو إقرار، تبدأ هي بالرحيل في داخلها عنك حتى إذا ما اكتمل ذاك الرحيل الداخلي، أتتها قوة عظيمة مفاجئة ورحلت بالفعل.

تنهد الطريق:

- تبدأ معاناتكم ومحاولاتكم لاسترجاعها وصدمتد من الرفض. كيف استطاعت أن تستجمع كل هذه القوة وترفضني؟ لا يا عزيزي، أنت نفسك كنت مصدرَ تراكم هذه القوَّة. التي تجعلكم تستشعرون خسارتكم المستحقة، إن أعظم نعم الحياة التي رأيتها بين المارَّة هو حب صادق من امرأة لرجل، أرى هؤلاء يمسكون بأيدي بعض وبأنفس بعض طوال مشوارهم في طيَّاتي. فإذا ارتفعت بهم أنا ارتفعوا معًا وإذا انخفضت بهم أو

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

بأحدهم تمسَّكوا ببعض أكثر كأنهم يجبروننني أنا على الالتواء والتغيُّر من صمودهم وصلابة حبِّهم، ولكن هؤلاء قلَّة.

على أي حال أنت في بداية المسير، ستتخطَّى حين تخطو، لا تحزن يا صديقي.

أصغى ياسر لكلام الطريق في دهشة عارمة فإن هذا تمامًا ما حدث مع علياء. فبدأ ينتبه لحكمة الطريق وأدركه فضول المعرفة فسأل ليستزيد:

- وهل أنتِ مرسومةٌ لنا أيتها الطريق؟

الطريق:

- يا لهذا السؤال التقليدي الذي ما منه نفع ولا له إجابة شافية. كلما راودتني نفسي أن أحاور أحدًا منكم بدأ بهذا السؤال ولكن بطرق مختلفة، لكن فحواها نفسه. هل نحن مسيَّرون أم مُخيَّرون؟ هل نتحكَّم بحياتنا أم إنها ثابتة مهما فعلنا أو لم نفعل؟ هل يسوقنا الحظ أم القدر وهل نسوقه بالعمل أم الدعاء؟

ياسر مُصرًّا على سؤاله:

- وما إجابة هذا السؤال التقليدي؟

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

الطريق:

- لا أدري ما الإجابة المُطلقة لهذا لكن صدقني لن تُغيِّر الإجابة شيئًا.

لقد رأيت على مر الزمن أن المارَّة الذين يبالغون باعتقاد أنهم ريشة في مهب الريح ومصائرهم وأرزاقهم مُسيرة إليهم، يقعدون عن العمل ويؤمنون بعجزهم التام فيعجزون بالفعل. ورأيت في المقابل، الذين يبالغون في قدرتهم على تخطيط سير حياتهم بأيديهم بخياراتهم وجهدهم ليفاجئهم القدر والنصيب والرزق من حيث لم يحتسبوا. ورأيت أن مَن عاش بين هذا وذاك، وتجهَّز للاحتمالين عاش خيرًا ممن تطرَّف إلى ميل. وهكذا أنتم أيها المارَّة أنواع وأنماط

ياسر:

- أخبريني عن أنواع المارَّة.

الطريق:

- هي أنواع كثيرة، ولكنها تتكرر على مر الأزمنة والعصور تختلف بظاهرها ولكنها متشابهة.

فيكم المُسرع: ذاك الذي يقطعني راكضًا مُستعجِلًا، كأنَّما رغبة عارمة بالوصولِ تسحبُه من عنقه للأمام بسرعة فائقة، كما حبُّه في الاستزادة. هذا نوع مُنجِز رأيته يُحقق

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

الغِنى المادي والوظيفي لكن تفوته الرحلةُ، ويباغتها هو بالنهاية كأنه يستعجلها. ورأيت في هذا أن متعته خلال الطريق طفيفةٌ جدًّا لا تصيب جوفه، فهو عالقٌ خارج محطته الحالية وغارقٌ في انتظاره للمحطة التالية من مسيرته. رأيتُ أن هذا النوع ليس به شرٌّ مُتأصِّل ولكن سرعته وانجذابه الأعمى لما هو آتٍ في الطريق يجعلانه يغض الطرف أحيانًا ليس فقط عن المتعة، بل حتى عن بعض القيم والمبادئ التي من شأنها أن تأخركم عن المسير أحيانًا. فمعظم المارَّة المسرعين لا يبطئون ليساعدوا أو يستمعوا لمَن علق في محطة أو سقط في حفرة، أو عاكسته أنا بدافع مِن دوافعي المجهولة.

وأغرب ما رأيت في هذا النوع أنه أحيانًا أو غالبًا من فرط سرعته ما يشت بنفسه عن الطريق، كأن السرعة نفسها تُصبح المقصد والهوية. لقد تحدَّثت مع أحد من بني جنسكم عن السرعة سابقًا، أعتقد كان يُقال له توفيق الحكيم فذكر مثلًا أعجبني.

قال إننا أصبحنا في زمن يشبه الجنون لدرجة أنه إذا كان أحدٌ منكم يود النزول من الطابق الثالث إلى الطابق الأرضي فإنه قد يُلقي بنفسه من الشرفة لأن هذا يضمن وصوله بسرعة أكبر ووقت أقل من أخذه للسلالم. ضحكت

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

آنذاك من مثله هذا ولكن اليوم لا أراكم بعيدًا عن هذا المثل على الإطلاق، فالكثير الكثير منكم أو من مجتمعاتكم أصبحت تقفز عن الشرفة للوصول بسرعة ولكنها بلا شك تحطم أجزاء منها وتتنازل عن قوامها بل حتى إنها قد تلقي حتفها.

هكذا يصل المسرعون ليكتشفوا أن ما أضاعوا بسبب عجلتهم في السير بي خير وأكبر مما كسبوا، ولكن غالبًا بعد فوات الأوان. المحظوظون منهم، أُوقفهم أنا غصبًا عنهم ليبطؤوا، إمَّا بخسارة وإمَّا بفقد عزيز من المارَّة وإمَّا بهزة بسيطة في صحتهم فيستدركون.

قاطعها ياسر بعد أن سئم شرحها البطيء عن المسرعين وقال:

- حدِّثيني عن أنواع أخرى، ولكن باختصار، فبيتي أصبح قريبًا.

الطريق:

- هناك نوعٌ آخر من المارَّة يثير شفقتي وأحزن عليهم، هم العالقون.

العالقون الذين تمشي أجسادهم مُتوجِّهة للأمام من محطَّة إلى أخرى وتبقى أرواحهم عالقة في محطة واحدة. وغالبًا

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

ما تكون هذه المحطة التي يعلقون بها واحدة من اثنتين: إمَّا محطة زاروها وذاقوا فيها سعادة عارمة لكنهم اضطروا إلى مغادرتها قبل أوان تخيلوه في أنفسهم. وإمَّا محطة لم يزوروها قط ولكن طلبوها وتمنوها بكل كيانهم. كم شعرت بألمِ خُطى العالقين يا ياسر، يجرُّون أرجلهم جرًّا بغير حياة، تفنى خطواتهم وأيامهم عاجزة عن أن تُدخِل نورًا أو سعادة حقيقيَّة إلى قلوبهم.

هل تُبلِّغ هؤلاء رسالة منِّي يا ياسر؟

ياسر:

- طبعًا، بكل سرور، ماذا أقول لهم؟

الطريق:

- لا تنتظروا زيارة هذه المحطة إن كنتم تمنيتموها ولم تزوروها. وإن كنتم قد زرتموها لوقت أقصر وبقيت في ذكرياتكم فلا تنظروا إليها، اقطعوا أوصال الأمل وحبال الذكريات لتحرروا أيامكم وعواطفكم ولتدخلوا الحياة إلى قلبكم. إن الأمل ضرورة ونفحة خالصة من القوَّة والجمال ولكنه قد يكون خطرًا جدًّا إذا كان في غير موضعه، أحيانًا عليكم قتل الأمل وخنقه بأيديكم والتأكُّد أنه قد مات لتتمكنوا من المُضي قُدُمًا واستكمال الرحلة، وإعطاء ما

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

لم يأتِ بعد من طريقكم فرصة ليلامسكم ويقنعكم، نعم، عليكم قتل الأمل أحيانًا.

انظروا حولكم وأنتم في سيركم، قد تجدون محطات أروع وأجمل وتناسب بقاءكم بها أكثر فلا تتعنَّتوا وتُصرُّوا. ليس هذا بأمر سهل ولكن من تجربتي أقول لكم إن السعادة غالبًا ما تنتظر لنظفر بها خلف أسوار الصعوبة والتحدِّي.

أخبِرهم يا ياسر أن المارَّة الذين جرحوهم في الماضي يجب أن لا يعرفوا مستقبلهم. أخبِرهم أن ذكريات الماضي تلتئم فقط عندما نتطلع بشغف لما هو آتٍ من ذكريات، أخبِرهم أنه فيَّ احتمالات لا حصر لها، احتمالات للحب. احتمالات للوطن احتمالات للرزق لا تُضيِّقوها عليكم أخبِرهم أن يفعلوا كلَّ ما بوسعهم ليكونوا في المحطه التي يرغبون وأن يبذلوا كل طاقاتهم ليحققوا هذا، ولكن أحيانًا تصدهم الطريق عن محطة معينة، وعليهم أن يؤمنوا بالنهاية ويتركوها برضا لكي تستكين أنفسهم وتُفتح لهم آفاقٌ في المستقبل والحياة والطريق.

ولا أخفيك يا عزيزي أنه من دمعتك هذه أخاف عليك أن تكون مِن العالقين، وأخاف عليك أن تكون من صنف آخر.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

ردَّ ياسر كأنه لم يسمع الجزء الأول من الجملة، فقد كان فيه عنفوان وغرور يرفضان أن يُحدد له أي طريقٍ مُعيِّن يسير فيها، حتى وإن كانت الطريق نفسها. فقال:

- وما الصنف الآخر الذي تخافين عليَّ أن أكون منه؟

قالت الطريق وفي صوتها بسمة خفيفة:

- أخشى عليك أن تكون من المُتفلسفين.

رد ياسر:

- مع إني أعتبر إني أميل إلى الفعل أكثر من الفلسفة ولا أدري إن كانت الفلسفة نقيضَ الفعل أصلًا ولكن أخبريني عن هؤلاء.

الطريق:

- هؤلاء الذين ينظرون إلى الطريق أكثر مما يسيرون فيه، كأنهم يجلسون على الرصيف ويخرجون من الزمان ويتأملون في كلِ الطريق وكل المحطات وكل المارَّة، وأنفسهم ليستخلصوا مفاهيم وأفكارًا ونظرياتٍ ويعيدوا إسقاطها على الطريق والمادَّة التي فيه، كأنها قاعدة ترسمه أو ترسم الحياة فيه سواء للمارة أو لمجموعات المارة أو لمجتمعات المارَّة.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

دعك من نظرياتهم أنا أتحدث عنهم كنمط من أنماط البشر. هؤلاء يخرجون من الواقع وما أن يلامسهم حتى يجفلوا تمامًا، لقد أضحكتني مسائل غريبة على مر التاريخ. فقد رأيت أرسطو يتألم وسخط من حوار تافه مع زوجته وسقراط يغضب على أبنائه لسلوك لا يرضاه، تخيل يا ياسر أنهم عليهم أن يعيشوا في الواقع من خلال أجسادهم وحياتهم وتفاصيل أيامهم، وفي ذات الوقت عليهم أن يترفعوا عن الواقع في أفكارهم ونظرياتهم، الأمر مؤلم بعض الشيء أليس كذلك؟ على أي حال فإن الكلام عن الفلاسفة مملٌّ ولا يخلو من التجريد غير المفهوم، ولكن خلاصة القول احذر وحذارِ أن تبالغ في الفلسفة والتفكُّر والتأمُّل ولا تعيش الواقع ولا تفعل.

ياسر:

- فعلًا دعينا من الفلاسفة لا أعتقد أني سأرى الكثير منهم في طريقي.

الطريق:

- أغلب ما سوف ترى في حياتك هم الناس العاديين، هؤلاء الذين يتبعون سيلًا من المارَّة دون تفكيرٍ ويسيرون في أمواج يتبنُّون ما تتبنَّى ويرفضون ما ترفض ويسيرون إن

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

ساروا ويقفون إن وقفوا دون أن يعلموا لماذا، ولا يفكِّرون بخطاهم هم على الإطلاق. منهم من يتزوَّج لموجة زواج ويُطلِّق لموجة طلاق، منهم مَن يتحرر لموجة حرية ثم يُستعبد لموجة عبودية وتمضي مسيرتهم في الطريق كأنهم لم يمرُّوا هم ولم يعيشوا هم، بل كانت مسيرتهم مجرَّد امتدادٍ لما كان سائدًا من مفاهيم وموجات إبَّان رحلتهم.

قال ياسر وقد استذكر علياء وأحس بأن الحوار قد ابتعد عنه بعض الشيء:

- أتدرين أيتها الطريق، إن ألمي لخسارة علياء عظيمٌ لدرجة أني لا أريد أن أعشق بعدها أبدًا ولا أن أتعلَّق بأحد أو بشيء لهذا الحد. إني أشعر بأن فقدانها كأنه انسلاخ لروحي عن جسدي كأنه الموت يسلخ بين الروح والجسد، وكيف لي أن أُطيق الموت مرات عدة؟ لا أريد هذا أبدًا، لن أعشق أبدًا بعد اليوم...

الطريق:

- لقد رأيته في أعين البشر منذ أن بدأت رحلتنا معًا ولا أراه يزول حتى يزول البشر، وهو بحق فراق يشبه الموت وانسلاخ الروح عن الجسد، ولكن دعني أقول لك إنك إن

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

لم تعشق مرة ثانية فمعناه أنك ارتضيت أن لا تُحيي بعد هذه الميتة، وبهذا فإنك حين تموت بحق تكون قد مت مرتين متتاليتين دون أن تحيي بينهما. إن العشق يهب الحياة، ودونه تصبحون كالمومياوات الرمادية بلا رونق ولا لون ولا حياة ولا دافع للمشي حتى وإن مشيتم.

لقد ذكرت لك يا عزيزي الكثير من أنماط المارَّة الذين تفوتهم الطريق ومتعتها، ولكن أتدري مَن هم أكثر الذين تفوتهم بحق؟

ياسر:

- مَن؟

الطريق:

- الخائفون.

ياسر:

- أليسوا في مأمن؟ حدِّثيني عنهم.

الطريق:

- حدِّثني أنت عن الخوف. لقد رأيت الخوف في أعين المارَّة جميعًا، حتى شعرت به من وقع أقدامكم المترددة، وفي التوقُّف التام والركض أو الهروب المجنون. أراه فيكم

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

لكني لا أفهمه خبِّرني عنه أنت، عن علاقتكم به، أتحبُّون الخوف أو تأتمنون به؟ هل هو حاميكم أم قاتلكم، أشعر به من خلالكم لكني لا أفهمه؟

ياسر:

- لعلي ما زلت محدودَ المعرفة وضيِّقَ الأفق وقليلَ التجارب والسنوات، لكني اليوم أقول إن مردَّ معظم ما ترينه من أنماط وسلوك المارِّين فيكِ هو الخوف بأشكاله، وبسبب حتميَّته فإنه لا يميز بين المارَّة لكنهم يتمايزون في التعاطي معه.

ترين الخوف مُتجلِّيًا في تفاصيل حياتنا، وأسهل وأوضح ما يتجلَّى به هو الخوف من الموت أو انتهاء رحلتنا أو رحلة مَن نُحب السير معهم. ترينه في أمٍّ تدخل منتصف الليل على وليدها النائم تحدِّق بضعَ ثوانٍ تراقب حركة صدره، فإن تحرَّك وانتفخ وفرغ تأكدتْ أنه يتنفس فهو ما زال حيًّا. ترين الخوف في لحظة اصفرار رجل أربعينيٍّ كلما رن هاتفه ورأى أنها أخته أو أخوه يكلِّمه في وقت غير معتاد فيرد مسرعًا ويحاول أن يخفض نبضات قلبه المتسارعة ولكنه يستعجل السؤال ليستشفَّ من صوت المتصِّل أن ليس هذا اتصالَ خبرِ وفاةِ أحدِ أبويْه. وترينه

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

في القلق الجلي لعينَي أبٍ حتى يعود ابنه من سهرة خارج البيت مع أصدقاء لا يطمئن لهم قلبه.

ترينه في كلِّ مكان، في يأس المنتظرين في غرف انتظار المستشفيات، وفي أعين المُلقين على أسرتها. وترينه في إهمال نشرات الأخبار التي تنقل احتمالات الحروب والقتل...

قاطعته الطريق كأنها قد استعارت ضيق الصدر من البشر لتقول:

- أرهقتني بوصفك هذا، ومع إنك تصف هذا الخوف بشيء من العاطفية ولكني مع ذلك أرى أن الخوف من الموت هو الخوف المبرر والطبيعي، ولكني ما كنت أسأل عنه، بل كنت أسأل عن الخوف من الحياة، إنكم يا عزيزي تبدون لي كأنكم تخافون الحياة أكثر مما تخافون الموت بكثير، تخافونها لدرجة تبدون لي أنكم تعيشون حياة سيكون الموت الذي تخشون أفضل منها.

صمتت الطريق لحظة ثم قالت:

- انظر يا ياسر إلى تلك السيارة.

فنظر ياسر إلى تلك السيارة فوجد فيها رجلًا خلفَ المقود وبجانبه مَن تبدو أنها زوجته وفي المقعد الخلفي أطفال أغلب الظن أطفالهما، وأكملت الطريق:

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

- أترى هذا الصمت بين الزوجين، عن هذا الخوف أتكلَّم. يجلسان على بُعد أقل من همسة ولكن الخوف من الحديث أو السؤال، أو معرفة ما يدور في رأس وقلب كلٌّ منهما يجعل من السكوت أمنًا وهميًّا، رأيته ينفجر في لحظة ما بعد مسير طويل أو قصير. إنهما يخافان حتى أن يسألا نفسيْهما، هل مللنا بعضنا وما عاد فينا ما يحركنا أو يحرِّك مشاعرنا؟ هل عشنا بحق ما طمحنا له؟ هل نسير في طريق صحيح؟ أحقًّا أنه يربطنا غير هؤلاء البشر الصغار في المقعد الخلفي؟ هل انتهت حريتي؟ هل كبرت؟ هل ستكون أيامي القادمة نسخًا من السابقة، فيها ثباتٌ داخليٌّ قاتل وحركة خارجية لا تكاد تصل إلى داخلنا؟ عن الخوف من السؤال والإنصات والمعرفة أتكلَّم.

تخشون كلَّ هذه الأسئلة أو تستبدلون بها أسئلةً أخرى، ماذا أكلتِ؟ متى ستأتين؟ أين تذهب؟ كيف حال الأطفال؟ وتبتعدون عن أي سؤال قد يهز واقعكم؟ وأمركم مع واقعكم هذا غالبًا ما يكون غريبًا جدًّا، أراكم ترفضونه تمامًا ولكنكم تخافون أن تغيروه، تخافون حتى أن تفكروا فيه وكأنكم ارتضيتم أن تشتروا وهم الأمان بأعماركم. عن هذا الخوف أتكلم.

صمتت هنيهة ثم قالت الطريق من جديد:

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

- انظر يا ياسر إلى هذه المجموعة من المارة، هؤلاء فيهم الخجول وفيهم قليل الثقة، فيهم من لا يرى في نفسه غير إنه إنسان عادي جدًّا، يمشون طريقهم صامتين حتى تنتهي وفي داخلهم موسيقى وأغانٍ وشِعر وكتب وأفكار واختراعات يذهبون بها إلى قبورهم، وما يمنعهم عن إظهارها وتغيير دنياهم بها إلا الخوف.

وانظر إلى البخلاء الذين يكنزون الأموال فلا يتداولونها، لأنها تعطيهم شعورًا بالأمان والهوية، وقد تكون بداخلهم مشاعر عظيمة كذلك لا يتداولونها فيبقونها لأنفسهم، فالبخل سواء كان في المادة أو العواطف ما هو إلا نوعٌ من أنواع الخوف.

وهؤلاء الذين يمشون وحدهم يخافون أن يحبُّوا أو يُحَبُّوا هروبًا من الألم والحزن والغيرة لدرجة أنهم يقتلون أرواحهم المُتنفِّسة بحثًا عن الحب. والله إني أرى أن الخوف يدفن أرواحكم وتبقى أجسادكم متنقلة في الحياة إلى ميعاد ليس على درجة كبيرة من الأهمية. حتى ذلك الوعد الذي قطعته لنفسك بعد خسارة علياء إنك لن تعشق غيرها أبدًا ما هو إلا خوف سيعود عليك بمنعك من الحياة.

تنهدت الطريق قبل أن تستطرد:

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

- ولا أرى أنه يحكم الوحيدين فقط بل حتى أولئك الاجتماعيين الذين يبالغون بطلب رضا الناس ويستجدون اهتمامهم لدرجة أنهم قد يغيرون بأشكالهم ومبادئهم وقِيَمهم لكي يشعروا أنهم مقبولون يشعرون بالانتماء حتى وإن كان زائفًا مخافة الوحدة.

حتى الذين ذكرناهم في المسرعين لا يبقون لأنهم يخافون إن أبطأوا أن يفوتهم من دنياهم ما لن يفوت غيرهم، حتى العالقون يخافون أنهم إن تخلُّوا عن جرحهم أو عن المحطة التي علقُوا بها فإنهم يخسرون هويتهم ومرساتهم التي تعرفهم ويخافون إلا أن يجدوا أنفسهم في مرحلة ما بعد هذا الجرح.

كلكم تخافون يا ياسر، حتى الأنبياء المؤيدين برسالات من خارج الطريق رأيتهم خائفون ولكنهم مع ذلك فقد مشوا، والقادة العظماء الذين غيروا الدنيا والقديسين والفنانين والعلماء والثوار والأحرار وكل مَن ترك في هذه الدنيا بصمة شعرت بالخوف في خطواته ولكني شعرت معها بالمُضيِّ رغم الخوف بالاندفاع بغض النظر عن النتيجة، فلكم رأيت منكم مَن آثر الحياة بكل خلجاته على منتصف الحياة أو الموت المؤجل، وكم منكم ثار فقط للثورة وأحب فقط للحب، ألَّف فقط للموسيقى وكَتبَ فقط للشعر، ومَن غيَّر الدنيا فقط لأنه رآها تحتاج إلى التغيير.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

فردَّ ياسر بلُغته البسيطة وواقعية عمره بعد صمت طويل وإنصات عميق:

- معكِ حقٌّ، أعتقد أن الخوف يهزأ بنا ويحكمنا حتى في المتناقضات ونرضخ له بغير حول ولا قوة. نخاف من الزواج ثم نخاف من الطلاق. نخاف من اغتنام الفرص ثم نخاف أن تفوتنا. نخاف من الوحدة ونخاف قرب الناس. نخاف أن نحلم ونخاف أن نُبقِي على واقعنا. نخاف الأمل ونخاف اليأس. نخاف أن يرحل مَن نُحب ونخاف أن نُحب مَن قد يرحل. ماذا عسانا نفعل أيتها الطريق؟

ياسر:

- أيتها الطريق!

ما عسانا نفعل؟

أيتها الطريق!

فلم يسمع ياسر صوتًا يردُّ عليه، وكأن دمعته التي قد أحيتها قد جفَّت فسحبت من الطريق الحياة وتركتها كما وجدتها أول مرة بلا روح، فقال في نفسه لنا لقاء وحديث آخر يا عزيزتي. وأكمل يمشي باتجاه بيته وقد هدأ روعه وتلاشى بعض الخوف الذي كان يحكمه من فكرة العيش دون علياء.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

قصة رجل غيَّر رأيه

https://t.me/osn_osn

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تصدَّرت كلُّ الصحف الرقميَّة والورقيَّة دون استثناء صورة غلاف واحدة وعنوان عريض واحد هما صورة رجل متوسِّط العمر وفوق الصورة بالخط الأحمر العريض جدًّا كُتب:

«رجل يغيِّر رأيه».

وفي الشوارع دار بائعو الجرائد الذين كانوا قد انقرضوا من سنوات وهم يصيحون في الناس:

«اقرأ الخبر... اقرأ الخبر... رجل يغيِّر رأيه!».

إنَّ هول الخبر أعاد فيهم الشغف للمهنة واسترجعهم من كهوف التاريخ ليحركوا المارَّة والمحلات بالخبر العجيب، كأنهم ينتشون من صدمة الناس وردة فعلهم عند سماع هذا الخبر.

وتلَتِ الصُّحف والباعة كل نشرات الأخبار على كل قنوات التلفاز، ربورتاج وحوارات ومقابلات وتحليلات تعرض صورة الرجل وتغوص في حياته وخلفياته وتتناوله من كل زوايا

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

المعرفة الإنسانية المتراكمة. منهم مَن درس لغة جسده وحللها وتناول دلالاتها، ومنهم مَن تناول أزماته النفسية وأحداث طفولته وراح يُحللها، ومنهم مَن طرح كل أنواع الأسئلة التي توحي بأن الأمر مريب، غير مفهوم.

مَن هذا الرجل؟

ماذا يريد؟

هل هو طالب مال أو شهرة؟

كيف خطرت له فكرة كهذه؟

هل أعماه الحب وصدماته؟

هل كفر بهُويته وتبنَّى هُوية جديدة؟

هل كان أبواه يعنفانه في أثناء الطفولة؟

هل افتقر بعد غنى؟

هل رأى النور الذي يراه الأنبياء أو الذي يدَّعيه المعاتيه؟

هل وهل وهل...؟

والغريب جدًّا أن هذه المرة الأولى منذ زمن بعيد جدًّا التي تتفق فيها كل القنوات ووسائل الإعلام المختلفة على غرابة الحدث وأهميته وموقفها منه. وضجت المدينة من أقصاها إلى أقصاها بالرجل الذي غيَّر رأيه. ولكن مَن هو هذا الرجل؟

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

هو رجلٌ في الثالث والأربعين من العمر اسمه رائد، مِن جذور متأصِّلة في الجزء الشمالي من مدينة الفصل. تمتد مدينة الفصل على ضفاف نهر طويل يقطعها بشكل أفقي قاسمًا إيَّاها إلى ضفتين شمالية وجنوبية. ولكن اليوم ومع كل هذا العمران والتطوُّر ما عاد النهر يفصلها، حيث إن شبكة جسور عنكبوتية قد مُدَّت من الشمال إلى الجنوب بشكل ظاهر جدًّا يعطيك انطباعًا أنها لم تكن يومًا منفصلة.

اليوم تبدو مدينة الفصل متناغمة بظاهرها، ولكن ما إن تتعرَّف عليها بعمق أكثر حتى تكتشف فيها تناقضًا مستترًا عجيبًا. تكتشف أن هناك هوَّة عميقة وفجوة بين الذين من أصول جنوبية والذين من أصول شمالية مثل رائد.

وتستطيع أن تميزهم بسرعة البرق، فقد كان في مدينة الفصل ست أفكار أساسية -لن نسردها لعدم أهميَّة سردها- وكان الجنوبيون، يؤمنون بالفكرة الأولى والفكرة الثانية والفكرة الثالثة ويدحضون ويرفضون تمامًا الفكرة الرابعة والخامسة والسادسة، وكان الشماليون على عكسهم تمامًا يتبنون الفكرة الرابعة والخامسة والسادسة ويدحضون ويرفضون الأفكار الأولى والثانية والثالثة.

فإنك إن سألت أحدًا من مدينة الفصل عن أيٍّ من هذه الأفكار عرفت دون أدنى شك إن كان هذا من أصل شمالي أم جنوبي. إن سألته عن فكرة واحدة فقط لعرفت من جوابه بشكل دقيق

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

منظومة أفكاره وآرائه وتفاصيل خبايا عقله ونفسه وقيمه وأحاسيسه كاملة. كأن مساحة عقله مرسومة ومحددة أطرافها بقلم حبر دقيق كحدود البلدان المنقوشة على الخرائط، إذا أزيح الخط قيد أَنمُلة لقامت الدنيا والحروب ولم تقعد. ومع أنهم كانوا جميعًا يعيشون في مدينة تبدو واحدة إلَّا أنهم كانوا مختلفين جدًّا.

كان لأهل الجنوب وسائل إعلام وقنوات وإذاعات مخصصة لا يشاهدها أهل الشمال، وكانت تنتج أفلامًا ومسلسلات وفنونًا ولغةً وكتبًا وأبحاثًا وبرامج كلها تمجِّد وتثبِّت الفكرة الأولى والثانية والثالثة وتظهر الخير فيهم، وتُقنع الجنوبيين أن في التمسُّك التام بهم جميعًا الخلاص والخير لهم، أفراد وأسر ومجموعات، بل فيها خير مدينة الفصل بكاملها. وفي الوقت نفسه تنبِّه وتنذر بالويلات والخراب والضلال إن سادت أفكار الشماليين الخطِرة المدمِّرة وكانت تتناولها من زوايا ضعفها وشرِّها.

وكان الشماليون يفعلون تمامًا ما يفعله الجنوبيُّون ولكن بحنكة أكبر حيث إن الإعلام كان لعبتهم فقد بنوا جزءًا من أفكارهم الثلاثة به. إلَّا أن أهل الجزء الشمالي من المدينة أشد حداثة وتطوُّرًا وفي أفكارهم ما يتناغم مع النفس البشرية من طلب للراحة ونبذ للقيود ومغريات الحرية الخلابة ومظاهرها المريحة؛ في حين كانت أفكار الجنوبيين تميل أكثر إلى العراقة

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

والقيود والتمسُّك بالماضي ومفاهيم وقيم تميل إلى المجتمع أكثر مما تميل إلى الفرد.

هذا، بالإضافة إلى تطوُّر الجزء الشمالي مِن المدينة ماديًّا وعلميًّا وإعلاميًّا، فإنَّ هذا الجزء قد حقق نجاحًا نوعًا ما بتصوير نفسه وتصوير أفكاره (الرابعة والخامسة والسادسة) بصورة التقدُّم والحضارة وتصوير الجزء الجنوبي وأفكاره (الأولى والثانية والثالثة) بصورة الرجعيَّة والتخلُّف والقيود. قد شكَّل هذا بالفعل عاملَ جذبٍ لبعض الجنوبيِّين سابقًا نحو شمال المدينة الفصل فتمثَّلوا بهم.

ولكن على مدى عقود سبقت ما عاد أيٌّ من عوامل الجذب الصادقة أو الكاذبة ينفع. لقد تقوقع كلُّ واحدٍ منهم في حصون آرائه وأصرَّ على التعاطي مع مَن يشاركه أفكاره فقط وبالغ في نبذ مَن لا ينتمي إلى أفكاره الثلاثة سواء الشمالية أو الجنوبية.

وكانت الأفكار الثلاثة الأولى تزداد رسوخًا في عقول الجنوبيين وقلوبهم كلما تطرَّف الشماليون لأفكارهم الثلاثة المضادَّة، والعكس صحيح. وتسبب هذا بفجوة عميقة بينهما لدرجة أن أدوارهما توزَّعت واصطفافهما اكتمل، فكُل الشماليين يمجدون الشمال كله وأفكاره كلها ويرفضون الجنوب كله وأفكاره كلها، وكذلك كل الجنوبيين يمجدون الجنوب كله وأفكاره كلها ويرفضون الشمال كله وأفكاره كلها.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

إلى أن أحب رائد الشمالي الأصل نور الجنوبية الأصل.

وبدأ هذا الحب الممنوع يتحدَّى مدينة الفصل، كما تحدَّى كل المدن وغيَّرها رغمًا عنهم، ولكن الشرارة كانت من قلب رائد ونور وصدقهما وقُربهما. إن القرب والقبول والشجاعة التي يمنحها الحب الحقيقي للحبيبين يشكِّل مساحة للحقيقة، فتسقط أقنعة الموروث الثقيل، كما تسقط أقنعة المستحدث الباهر. فلا يعد في الدنيا غير هذه الرغبة في التعرِّي أمام الحبيب، ليس التعرِّي الجسماني فحسب بل التعرِّي الفكري والحضاري والثقافي وكأنه دعوى ليرى المُحبون أرواحهم كما هي كأنهم ينظرون من خلال بعضهم إلى ماضي بعضهم السحيق، بدءًا من تجربة الحب السابقة، التي يرويها المحبون في أوائل اللقاءات، ثم رجوعًا إلى جنون المراهقة فرجوعًا إلى صدمات الطفولة، ثم خيالات سجال الأم والأب، ثم رجوعًا إلى أصوات مكنونة فيهم منذ كانوا في الأرحام، ثم رجوعًا إلى عمق حضارتهم التي صنعتهم وأجدادهم، وانتقال مِن ذكرى الفرد إلى ذكرى المجتمع إلى ما قبل التاريخ.

وبدأ الحب يبني قلعة الثقة حجرًا تلو الآخر كأنه معماري قديم يُشيِّد بيته ليسكن فيه. إن البيوت التي تشيد بالثقة يسكن فيها الحب آمنًا مستقرًّا ولا يغادرها إلى أن تتهاوى أحجار الثقة موقفًا بعد موقف فتضعف الأعمدة وتتشقق الجدران والأسقف، فيتململ الحب قلقًا ويبدأ بلملمة رحاله هاربًا قبل أن تهوي،

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

حتى وإن كان فيها مَن لا يزال يسكنها. ليس كسر الثقة خيانة الحبيب بل خيانة العهد. العهد على البحث معًا، على الأولوية، على عدم التخلِّي ما كان هناك رمقٌ ضئيلٌ في كل محاولة، على الصدق في التطوُّر والتغيُّر، على أن تجدني ما إن ناديتني، على أن أحتمل الملل والألم والحرمان معك ما دام بيننا وثاق العهد شديدًا، العهد على أن نلغي الوحدة دون أن نلغي بعضنا والعهد أكثر...

وعلى مِثل هذا العهد بُنيَت الثقة بين رائد ونور إلى أن أصبحا وحدة واحدة. شكَّلت هذه الثقة معبرًا للحقيقة الخالصة بين شمال المدينة وجنوبها وممرًا لتناقل الأفكار الستَّة ذهابًا وإيابًا من عقل نور وحياتها ومحيطها إلى عقل رائد وحياته ومحيطه وفي الاتجاه المعاكس. فأصبح كلُّ واحدٍ منهما بمنزلة مصفاة أفكار الآخر. فإذا حكى رائد أفكار الشمال الثلاثة لنور قابلته بنقد عقلاني لطيف هادئ لشيء منها أو من تفاصيلها، وتقبَّلت جزءًا آخر منها وإذا حكت هي له أفكار الجنوب الثلاثة فعل هو ذلك بالمقابل حتى بدأت تتكشَّف الحقائق.

بدأ رائد نفسه ينتقد أفكار الشمال ويتحدَّث عن النقمة المستترة ضد هذه الأفكار التي يعيشونها أهل الشمال أنفسهم. فإنما يدعون طروحًا مُخلِّصة للبشر في مدينة الفصل ولكنهم هم أنفسهم لا يجدون لأنفسهم خلاصًا بها بل بالعكس فإنها في حد ذاتها أزمتهم ومنتجة لحياة فارغة.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

بدأت نور نفسها يتقد في جوفها نقد الجنوب وتراه واقعًا بين أزمة عز سابق وتأخُّر حاضر ومستقبل مجهول. بدأت ترى الجنوب خائفًا من زوال أفكاره وقيمه ومبادئه بسبب تضعضع إيمان الجنوبيين بطرحهم للمدينة وإن كانوا يصدحون بها أحيانًا. والأكثر من ذلك بدأت ترى أن الفجوة بين الأفكار المنطوقة والحياة المعاشة سحيقة جدًّا وإذا سألت جنوبيًّا عن هذه الفجوة لقال:

«لا تحكم على الأفكار من سلوك تابعيها».

وكذلك كانت تقول نور قبل رائد، ولكنها اليوم تقول:

«أليس لهذا دلالات كبيرة أن نقول ونتَّبع في أذهاننا ما لا نعيش أو ما نحن غير مقتنعين أن نحيا به، أو غير قادرين عليه؟».

وعاهد رائد نفسه أن يبحث بصدق عمَّا هو أقرب للصواب وعلى أن يدحض الأكاذيب والمفاهيم الدخيلة المتراكمة في طيَّات الاختلاف بين الشمال والجنوب. فبدأ يغوص في الأفكار الستة ويدرسها من علم النفس وعلوم الحياة والاجتماع والتاريخ والأديان والفلسفة والذاكرة المجتمعية وغيرها.

وبدأ رائد رحلة تغيير الرأي. وبما أنها كانت من الأحداث التاريخية في مدينة الفصل وفي ذلك الزمن فقد حرص رائد على تدوين تجربته لعلها تساهم الباحثين عن الحقيقة في زمن

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

آخر أو في مدن أخرى. كان عازمًا أن يُبقيها لنفسه أو للتاريخ، ولكن نور أقنعته أن ينشرها لعلَّها تُعين الباحثين بحق عن الحقيقة أو ما يبدو أنهم كذلك وهذا أقرب للصواب، فاقتنع بعد عناء شديد.

نشر رائد رسالته في كلِّ الصحف التي ما فتئت تحاول معرفة المزيد عن هذا الرجل الحدث، ولكن كل قنوات التلفاز أصرَّت أن تعقد مؤتمرًا صحفيًّا كبيرًا يقرأ فيه رائد الرسالة على الملأ ويفتح للصحفيين والعامَّة مساحة ليسألوه عن هذه التجربة. قاوم في البداية ولكن نور أصرَّت أن يفعل، لأنها ترى أن المدينة لم تعد تقرأ وأن المدينة تزداد تطرُّفًا خطرًا وكانت تأمل أن انتشار هذه الرسالة قد يساهم في التخفيف من حدَّة الفجوة. ومدفوعًا بحبه لها اقتنع من جديد، فرُتب المؤتمر وأتت مدينة الفصل قاطبة. وبعد الترحيب والتحيَّات والمُقدِّمات اعتلى رائد المنبر وسط الحضور مدهوشًا وكأنه أمام عجيبة جديدة من عجائب الدنيا. أخبرهم أنه سيحاول أن يقرأ الرسالة تمامًا كما كتبها، وافتتح قائلًا:

«أيها القارئ والقارئة المباركون أينما كنتم وفي أي زمان عشتم...

أروي لكم رحلتي الشخصية لتغيير رأيي لعلَّها تلهمكم أو تساعدكم إن كان فيكم مَن لا ترضيه الحقائق الواهية التي نقتنع بها دون أن نقتنع، والتي نرضاها من الخارج وتُؤزِّمنا

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

من الداخل، وندافع عنها بكل جوارحنا، ونتحدَّى كلَّ مَن يتهجَّم عليها بقوَّة وشراسة ولكننا نخاف أن نسأل سؤالًا واحدًا صادقًا جريئًا في وجهها بداخلنا.

لا أقول إنها الرحلة الوحيدة والخطوات الحصرية لتغيير الآراء ولكني أقول إنها نجحت في حالتي. في زمن يسوده التطرُّف الأعمى، ترى فيه الناس لا يسمعون ولا يبحثون ويتَّبعون إلى أقصى الحدود أفكار ومفاهيم لم تمر بأيٍّ من مصافي العقل الراجح أو القلب السليم أو الدين أو القيم أو الأخلاق أو حتى مصافي الواقع التي تنتجه.

في مدينتي ما عاد التطرُّف حكرًا على أحدٍ ولا على مجموعة ولا على أمَّة بل أصبح العام السائد. وكأن كلمة ومكانة «وسط» اختفت من الدنيا. أصبحت تبدو كأنها تقيَّة يستتر بها الأغلب، أو مدعاة للفخر الكاذب دون إيمان بها. وكأن هناك رغبة غريبة في زجِّ كل الدنيا في خانتين لا ثالث لهما، خانة المطيع لآرائي جميعًا دون استثناء وخانة العدو الشرس للبشرية جمعاء أو مجنون لا يفقه من الحقيقة شيئًا (وهذا أيضًا تحت خانة العدو الشرس). هاتان الخانتان واضحتان وينطوي تحت هذا التصنيف صفات ثابتة، فإذا كنت في الخانة الأولى من منظار بعض الناس فأنت تلقائيًّا ستكون لهم المطيع المحب الراقي المثقَّف الجميل اللطيف وما شابه، وإن كنت في الخانة الثانية

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

من منظور بعض الناس فأنت العدو القاسي الجاهل الوضيع البشع وما شابه.

في كل معضلات مدينة الفصل، إن كان لك رأيٌ يُرضي الشمال فأنت في الخانة الأولى بالنسبة لأهل الشمال (خانة المُطيع الحبيب) والثانية لأهل الجنوب (خانة العدو الشرس) والعكس بالعكسِ صحيحٌ تمامًا.

أمثلة مدينتي لا تنتهي، فإن اعتقدت بما يُرضي الكبار أصبحت في الخانة الأولى لهم وفي الخانة الثانية للشباب. وإذا رفضت أجزاءً مما تقدِّمه التكنولوجيا والحياة التي تنتجها فأنت في الخانة الثانية لأهلها والأولى لأضادها كاملةً. إن قلت ما يُرضي النساء فأنتَ في الخانة الأولى للنساء والثانية للرجال، والعكس بالعكسِ صحيحٌ. وإن كنت مع الأكثرية في أمرٍ ما فأنت في الخانة الأولى للأكثرية والثانية للأقليات، والعكس بالعكسِ صحيحٌ. ولكن في الحقيقة، لا يجب أن يكون أيٌّ من هذا صحيحًا لا هو ولا عكسه أصلًا. وإن كنت باحثًا عن ما يُرضي الناس فلعل الاعتقاد بالحقيقة أو بالرأي الراجح قد يقارب المستحيل.

قد يتبادر لأذهانكم أن رحلة تغيير الرأي تختلف إن كان الموضوع عظيمًا أو تافهًا، ولكن الرحلة ذاتها. رحلة تغيير الرأي نفسها إن كان الطرح أمرًا بحجم الشمال والجنوب ومفاهيمهم التي تحكمهم بسلطة رقيقة قطعيَّة أو كان بحجم ما هو أبسط من هذا:

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

كيف نربِّي أبناءنا؟

هل علينا أن ننفصل أو نتزوَّج؟

هل الأسود يليق بنا أم لا يليق؟

هل أنت مع حركات حقوق المرأة والرجل والأطفال والحيوان والأشجار والنباتيين وغيرها أم ضدَّها؟

هل يُحبُّني أو يستغلُّني؟

هل هذا أهلٌ بالثقة أو ليس أهلًا لها؟

هل نبقى في بلادنا أو نتغرَّب؟

هل الوطن ما نقدِّم له أو الوطن ما يقدِّم لنا؟

هل ندعم هذا الخط أو ذاك؟

هل ننجح أم نسعد؟

هل يبقى الحب أم يزول؟

هل التكنولوجيا خير أم شر؟

هل هذه حقيقة أم كذب أم نفاق أم وجهة نظر أم تجربة شخصية أم ليس مهمًّا أصلًا؟

وغيرها مِن مكونات هويَّاتنا وآرائنا التي هي بالتالي مَن يحكم كيف نتعاطى مع الدنيا. فإنك إن اقتنعت أنك منهزمٌ بمكانٍ ما وثبت رأيك على هذه الحقيقة فإنك لا شك ترى

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

أنه عليك أن تخجل من نفسك وطروحاتك، وإن اعتراك العار واعتقدت به فإنك ستعامل الدنيا كأنك في طلب مستمر لرفعه عن نفسك ولإثبات عكسه. وإن اعتقدت أنك أكثر الناس تميُّزًا وذكاءً وهبة الله للدنيا فإنك لا شك ستعامل الله والأهل، والأسرة والناس والمجتمع وحياتك من هذا المنظور وبالتالي غالبًا ما تفوتك الحقيقة.

على أي حال فإن رسالتي هذه لا تُعطي الحقيقة ولا تدعيها ولكنها فقط تتعاطى مع تغيير الرأي. لا يفوتك أمرٌ بالغ الأهمية، أن تغيير الرأي قد يكون من خطأ لصواب وهذا ما نرجوه طبعًا، ولكنه قد يكون من صوابٍ لخطأ كذلك، وهذا وارد جدًّا فليس كلُّ مَن غيَّر رأيه وجد الحقيقة، وبالمقابل ليس كلُّ مَن بقيَ على رأيه فاتته الحقيقة.

(أعيد عليكم قراءة هذه الفقرة، لعلها عُذري أمام الله وأمام ضميري وأمام أمانتي، وأعادها رائد للحضور).

الثقــة:

على غرار ما يعتقده معظم الناس قلَّما تتغيَّر الآراء بالمعلومة، ولكنها تتغيَّر بالعاطفة. بعضنا يشعر بأنه يعرف هذه الحقيقة، ولكنَّا في معظم نقاشاتنا نتراشق المعلومات التي تبدو لنا من موقعنا وكأنها حقائق، وما إن علمها الطرف الآخر حتى صفعته

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

الحقيقة واعتذر عما كان منه من غباء أو اعتقاد خاطئ، هذا لا يُلامس الواقع على الإطلاق.

كم مِن طبيبٍ مدخِّن وهو أدرى المخلوقات بمعلومة «التدخين يضرُّ بالصحَّة». وكم مِن مستقبل لحقائق لا تقبل الشك وتتعارض مع رأيه وهو يدرك حقيقتها ولكنه مع ذلك يختزلها ويُلغيها ويحجب عنها فرصة التفاعل مع ذهنه، فتمرُّ ولا تتسبب بأي توتُّر ذهني أو شيء من الاضطراب الذي يسببه عدم تناغم المعلومة مع الرأي أو المعتقد.

هل يأخذ الناس آراءهم أو أديانهم أو أفكارهم أو معتقداتهم إلَّا من الذين يثقون بهم! إن الثقة الإنسانية هي بداية صناعة الآراء كما أنها بداية صناعة تغيير الآراء.

ما إن ينظر الطفل في عين أمه إلا وبدأت الثقة بتشكيل هويته، وتزداد الثقة يومًا بعد يوم بهذا الكائن القريب المُعطي الصادق المحب المهتم وإن كان الحبل السُّري البيولوجي انقطع لكنه حبل الثقة بهذا الكائن لم ينقطع بعد. فإن كنت أثق به في أمني ومأكلي ومشربي فلما لا أثق به فيما أعتقد ولما لا أرى الدنيا بعينيه. فإن كان هذا الكائن يُحبُّ الدنيا أحببتها، وإن كان يحب شخصًا أحببته، وإن كان سعيدًا سعدت، وإن كان حزينًا حزنت، وإن كان مؤمنًا آمنت، وإن كان ملحدًا ألحدت، وإن اعتقد بدين اعتقدت به وإن كفر كفرت. هكذا تتشكل بداية الآراء فتصبح جزءًا عميقًا منَّا.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

وهذا لا ينطبق على بداية الطفولة فحسب، ففي سن تلاقي المجتمع تبدأ بوصلة الثقة بالميل من البيت إلى خارجه، نحو الذين يعطوننا نوعًا من العطاء الذي أعطتنا إيَّاه النظرة الأولى من اهتمام وحب وتقدير وانتماء وأمن ولكن بصور تختلف عن أمن الغذاء وحب الأمومة والأبوَّة.

فيبدأ بتشكيل هويتنا وبالتالي آرائنا من هؤلاء الذين يشبهوننا ونلقاهم معنا في صفوف المدارس والجامعات والحانات والمقاهي والأندية الرياضية وغير الرياضية والمساجد والكنائس والأحزاب والورش والشرق والغرب والشمال والجنوب والعالم الافتراضي. وتتشكَّل الآراء الجديدة التي إمَّا تتوافق مع آراء الأم والبيت والأسرة وإمَّا ترفضها، ولكنها غالبًا ما تكون تراكمًا فوق الآراء المكتسبة من حب الأمهات والأسر.

باختصار، نحن لا نتبنَّى الآراء ولكن نتبنَّى الأشخاص الذين يتبنون الآراء. وكم من مؤمن بفكرة أو قيمة أو رسالة بسبب رمز وثق به وأحبَّه وارتبط به بعاطفة معينة وما إن اهتزَّت هذه الثقة بالرمز حتى نراه يكفر بجبل القيم والآراء التي كان يمثلها هذا الرمز.

قد يتبادر للأذهان أنني أُنحِّي العقل عن البحث للحقيقة، وأزعم أن العاطفة هي البوصلة السليمة لتغيير الآراء. أنا لا أقول هذا على الإطلاق، ولكني أُنبِّه أننا نحن البشر هكذا فعلًا. مفتاح

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

البداية هي العاطفة. ألا تذكرون لماذا أحببتم مادَّة أكثر من مادَّة في الصفوف الأولى، ألم يكن معلمها أحب إليكم من غيره.

ببساطة شديدة، إن معظمنا نحن البشر نحب الحق إذا كان على ألسن مَن نحب، ونحب الخطأ إذا كان على ألسن مَن نحب.

بل إننا نكره الحق إذا كان على لسان مَن نكره.

وكانت بداية رحلتي لتغيير رأيي هي حبٌّ نور وما منحه لي من ثقة بها، فالحب والثقة مشاعر عميقة خارج كياننا العقلاني، بل هو تواصل إنساني قريب. وفي زمن يقِل به التعاطف والتواصل الإنساني والمشاعر الصادقة والقريبة بين البشر، ويسوده تراشق الآراء عبر الهواتف من حصون بعيدة فكيف للثقة أن تُبنى، وبالتالي ما هي الفرصة الحقيقية لتغيير الآراء أو البحث عن الحقيقة والصواب. وفي زمن انتشار الفردية العميقة التي تحجب المحيط التفاعلي كيف للثقة أن تُبنى؟

فإن كان الشمال لا يثق بالجنوب وإن كان الزوج لا يثق بالزوجة والزوجة لا تثق بزوجها والناس لا يثقون بقادتهم والقادة لا يثقون ببعضهم، البائع لا يثق بالشاري، والصديق لا يثق بالصديق ولا التلاميذ بالمعلمين ولا الموظفون بالشركات، ولا المشاهدون بالقنوات ولا المروِّجون بالمرَوَّج لهم، فلا تتوقَّع إلا أن يزداد التطرُّف تطرُّفًا.

https://t.me/osn_osn
مكتبة إيلينا
Elena book

التواضع:

فبعد أن يمهَّد لك القبول والحب، متبوعيْن بالثقة. الطريقُ إلى المعرفة عليك أن تتواضع أمام المعرفة الجديدة، وما هذا بالأمر السهل. فإن معظم الناس تربط صحَّة آرائها بهويتها وترى انهزام هذه الآراء كأنه انهزام لهويَّتهم. كأن هناك عارًا مُلتصقًا بأن تكون على خطأ، ولكن الأدعى أن يكون العار ملتصقًا في أن تبقى على خطأ ولا سيما بعد أن تعلم. فإن لم تجد لك مصدرًا تثق به كإنسان وإن تكبَّرت على المعلومات واعتبرت أنك مالك للحقيقة فيستحيل أن تستطيع أن ترى دنيا أوسع منها الآن.

وفي زمن ينفث في ذواتنا القيمة المزيَّفة ويوهمنا أننا آلهة حرَّة وبالتالي فإن أحاسيسنا وآراءنا هي مراجع الصواب والخطأ لا الحقيقة نفسها، وهذه كارثة الكوارث عزيزي القارئ. عندما تتضخَّم حرية الفرد، تمسك بمقود سلوك البشر أحاسيسهم وأهواؤهم ولا يعود من رادعٍ لا لعرف ولا لقاعدة اجتماعية ولا لعهد ولا حتى لطبيعة فيصبح الصواب وجهة نظر وتتغيَّر أسماء الخطايا ويتبرر لنا كلُّ ما نهوى. وما هذه إلا نتيجة تأليه الذات وما يلحقها من غرور وكبر. فإن رأى المرءُ أن ذاته العظيمة تستحقُّ المتعة فإنه لا يأبه بالخيانة وكسر العهود. وإن رأى أن هذه الذات العظيمة لا يجب أن تعاني أبدًا فإنه يكفر بالتضحية

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

والعطاء والتحمُّل في سبيل أي شيء أكبر منه، ببساطة لأنه لا يرى أن هناك ما هو أكبر منه.

أحبَّائي القرَّاء، قبل أن ننتقل من محطَّة التواضع، اسمحوا لي أن أستطرد قليلًا.

فضلًا عن كونه (كما ورد وقيل) الخطيَّة الأولى التي عصى بها إبليس ربَّه، وفضلًا عن كونه يحجب عنك المعرفة، فإن التعظيم المبالغ به للذات وكل ما يلتبس به من خواص وخصال كالغرور والكبر والعجب ومشتقَّاتها من أغبى الخطايا على الإطلاق. كل خطايانا فيها غباء ولكني أرى الغرور أغباها.

إن فكَّرتم في معظم خطايانا فإنَّا نرتكبها آملين أن تعود علينا بمنفعة أو متعة أو شهوة ما أو أنها تحجب عنَّا أذى أو خطرًا ما. فالكذب على سبيل المثال خطيَّة نرجو بها أن نصل إلى مُبتغانا أو أن نوفر على أنفسنا عناءَ طريقٍ أو نتجنَّب عقابًا، ففي الكذب «مصلحة» حسيَّة حياتيَّة. كذلك البخل، خطيَّة رذيلة وخصلة متأصلة لكنها تجعلنا نكنز مالًا وقد يغتني بها البخيل، وهذه أيضًا «منفعة» حسيَّة حياتيَّة.

باختصار فإذا كان الكذب ينفعنا، والبخل يُغنينا، والجبن يحمينا، والشهوة تُمتعنا، والكسل يُريحنا، والطمع يدفعنا، حتى

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

الحسد والحقد والانتقام يُحركنا... فماذا يمنحنا الغرور؟ لا شيء.

بالحقيقة إن المبالغة في الغرور (وما يلتبس معه من خصال وخواص) لا يعود بنفع حسيٍّ حياتيٍّ على الإطلاق بل العكس بالعكس تمامًا. أنا لا أتحدَّث عن أي الخطايا أخطر وأكثر تدميرًا ولا عن أيها أرذل ولكني أتحدَّث عن أيها أغبى. وأغبى ما في خطية الغرور هو حجم الألم التي تتسبب فيه.

إن الألم بحجم الأنا. إن الألم بحجم الأنا، إن الألم بحجم الأنا.

كلما عظمت الأنا الداخلية وبالغْنَا بقيمة ذواتنا وبتقديرها وأهميتها واعتبرناها مركزَ ومدارَ الكون، كان ألم صدمتنا بالواقع أكبر. إنَّا لا تؤلمنا الأحداث بقدر ما تؤلمنا الأنا التي تتعاطى مع الأحداث. كلما كانت الأنا حاضرة وقويَّة في مزيج المشاعر المتضاربة، كان الألم أشد، وكلما رضيت ورضخت الأنا وخفت صوتها في فوضى المشاعر رقَّت علينا الأحداث.

كيف تخونني أنا؟

كيف ولماذا يُصيبني أنا هذا المرض الخبيث؟

لماذا يُصاب ابني أنا بالتوحُّد؟

كيف تكلمني أنا بهذه الطريقة؟

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

لماذا يموت أبي أنا؟

كيف ترفضني أنا؟

أتدري أنك تتعامل معي أنا؟

كيف تشك بي أنا؟

كيف لا تستمعون لرأيي أنا؟

كيف لا ترون الحقيقة التي أراها أنا؟

كيف لا يرى مديري قدراتي أنا؟

لماذا تضاء الإشارة الحمراء على دور سيارتي أنا؟

وأمثلة كثيرة تدور داخل معظمنا وفي لغتنا في مواقف الدنيا من أتفِهَا إلى أعظمها، فليست المشكلة أن التفاهات والمشكلات والآلام والمصائب والأقدار تحدث، ولكن المشكلة أنها تحدث لي أنا. وندور حول أنفسنا باحثين عن أجوبة نسقطها على الواقع ونحشرها فيه حشرًا كأن الدنيا لا بد أن تدور بما نفهم وندرك ونحصي نحن.

حتى إنك إن قلت لأحدهم «إن الدنيا لا تدور حولك» لاعتبرها إهانة عظيمة ومحاولة خبيثة لتوضيعه ومهانته، ولكني أراها

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

حقيقة مريحة مرضية جدًّا جدًّا جدًّا... «إن الدنيا لا تدور حولك» يا لها من نعمة تُحرِّرُنا.

فالآباء يموتون، والبشر يضعفون ويملُّون فيخونون، والناس تمرض، والأرواح جنود مجنَّدة منها ما ائتلف ومنها ما اختلف، والآراء تختلف، والنفوس تخاف. الإشارة الحمراء يا عزيزي عليها أن تضاء أمام سيارة أحدهم، فإن كنت أنت ذلك «الأحدهم» في وقتٍ ما تذكَّر أن الأقدار لم تتآمر عليك. تذكَّر فقط أنك هنا اليوم في هذه اللحظة بالذات لأسباب وعوامل واحتمالات يستحيل حصرها وبالتالي يستحيل التحكُّم بها. فإن أنارت الإشارة الخضراء على دور سيارتك فعلى الأغلب ليس لأنك عظيم طاهر ذكي متميِّز، وإن أنارت الإشارة الحمراء فعلى الأغلب ليس لأنك وضيع خبيث غبي عادي ولكن هذه هي الطريق يا عزيزي، كل ما عليك فعله أن تقود سيارتك في الاتجاه الذي تعتزم السير إليه.

الجرأة:

بعد الحب والقبول والثقة والتواضع تأتي أهم المحطَّات في هذه الرحلة ألا وهي الجرأة. إن رحلة البحث عن الحقيقة ليست للجبناء، هؤلاء يبقون داخل حصون ما ألفوا من حقائق وما

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

اعتادوا من سلوكٍ متماشٍ مع هذه الحقائق. لا شك أنك تحتاج إلى جرأة عظيمة للقفز من أبراج شيدتها سنين بداخلك نحو مجهول تمامًا.

ماذا سوف أكون أنا إن اكتشفت حقيقة أخرى؟

ما هي قصتي التي سأرويها عن نفسي وعن رحلتي؟

كيف تكون قصصي مهمَّة إن لم أكن أنا مُهمًّا؟

عن ماذا سوف أدافع وماذا سوف أنتقد؟

والله لقد رأيت أناسًا تتمسَّك بأخطائها لأنها هويتها، وترتبط بجروحها وحتى أحيانًا تتمسَّك بحقدها وكرهها لأنها لن تعرف ذاتها إن غفرت. أحيانًا يتعالون على حقيقة مشاعرهم فلا يواجهون ضعفهم بقوَّة، بل يهربون منه فيزداد ضعفهم قوةً عليهم، ليدوروا بحلقة مفرغة. إن الجرأة لا تعني القوَّة ولكنها المواجهة رغم الضعف فتأتي القوَّة رغمًا عنها.

فكم منَّا بقي على ودٍّ مع شخص لا يودُّه ويداري هذه الحقيقة حتى عن نفسه ولا ينظر في عينها بل يخشاها ويتفاداها. وفي أوقات ما، لا يجرأ حتى على الاستيضاح أو الطرح من شدة خوفه من نتائج الحقيقة. أنا لا أنكر أن في غالب الأوقات يوجعنا انقضاء وَهْمٍ كان يُداعب خيالاتنا وآمالنا ولكني أزعم أن الموقف

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

الحاسم يجعلنا أقوى من الوهم الوهِن في ذواتنا. والعجيب أننا كلما حمينا الوهم بالجبن، كانت مواجهة الحقيقة أصعب وأشد خطورة فنضطر إلى أن نحميه أكثر فنزداد جبنا.

شعر رائد أنه قد أطال الخطاب على الحضور وبدأ يشعر بحرارة غضب بعض الحضور وبرودة ملل بعضهم الآخر فاختصر كلامه وسارع فيه، قائلًا:

«لعل منكم مَن ينتظر أن أُفصح عن أيٍّ من أفكار الشمال أرفض وأيها أقبل، وأيٍّ من أفكار الجنوب أتبنَّى وأيها أدحض، ولكن هذا يا سادة ليس المراد على الإطلاق، فرسالتي لكم لا تهتم بالأفكار ولكن تهتم بالعقول والقلوب التي تستقبل الأفكار.

لا أخفيكم أنه قد راودني خاطرٌ أن أشيِّد قرية عائمة فوق نهر الفصل تقف وأهلها باعتدال بين أهل الشمال والجنوب وأفكارهم، لكني أعتقد أن هذا لن يُزيد الوضع إلا سوءًا. وأغلب ظني أننا بهذا ننتهي بشمالٍ متطرِّف يقابله جنوب متطرِّف يفصل بينهما وسط متطرِّف. وهذه كارثة نحد بها الوسط والاعتدال ونثبته، وبهذا يفقد حرية المحاولة ورشاقة البحث عما هو أصوب في زمن ما، في مكان ما، لأناس ما.

خلاصة تجربتي، إن تغيير الرأي يبدأ بالحب، ولا أعرف كيف يبدأ الحب. ثم تأتي الثقة التي تجعلنا نسدل دفاعاتنا ونأمن.

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

وبعد الحب والثقة علينا بالتواضع أمام الاكتشاف والفصل بين رأينا وهُويتنا وبما هو أقرب للصواب، واختتمنا المسير بالجرأة، فلا آراء للجبناء، وبالتالي فلا تغيير لآراء الجبناء.

شكرًا جزيلًا لكم يا أهل الشمال والجنوب».

وما إن انتهى رائد من قراءة رسالته حتى بدأ الصحفيون والصحفيات برفع أيديهم مطالبين بالميكروفون ليطرحوا أسئلتهم. فأشار منسِّق المؤتمر إلى إحدى الصحفيات الجميلات التي يبدو على ملامحها أنها من أصول شمالية من مدينة الفصل. أمسكت الميكروفون كأنه مسدَّس قاتل تريد أن تقتل به رائد لو أُتيح لها وقالت:

«إذًا، يعتقد معظمنا أنك قد صبأت عن أفكار الشمال الثلاثة واتبعت أفكار الجنوب، ومَن يقرأ رسالتك يستشعر أنك اليوم رجعيٌّ ذكوريٌّ متطرِّف وترى أن الإنسانية وقِيَمها قد اختفت من دنيا اليوم، وإذا تمعنَّا فيما كتبت أكثر نراك تقول إن الفرد يجب أن يذوب تمامًا في الجماعة، وإن على الناس أن يعتبروا أنفسهم عاجزين عن التأثير في أقدارهم...».

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

وهي في منتصف سؤالها وإذ بصحفي رجل أربعيني جنوبي يزعق مقاطعًا وكأنه لم يحتمل غباء ما تقول فرفع صوته دون ميكروفون قائلًا:

«لا أدري كيف رأيت هذا! فمعظمنا نحن الجنوبيين نراه نسويًّا تقدميًّا لدرجة هدامة، نراه لا يراعي عرفًا ولا قِيَمًا ولا يصون ما ألفينا عليه أباءنا. إن كلَّ ما كتبه يُوحي بأنه يرى الجنوب وأفكاره مليئة بالجهل والنفاق والظلم ونراه يأخذ بنصرة الاستثناء على القاعدة، والله أنكم أصحاب الشمال لا تُطاقون».

ودار الهرج والمرج بين صحفيي المدينة شمالًا وجنوبًا، وكلا الطرفين يتَّهم رائد بتطرُّفه وانتمائه للطرف الآخر. وبقي رائد على المنبر هادئًا تجول عيناه في مشهد حي لجنون جماعي. وراح يبحث عن مستقرٍّ فوجد عينَي نور الجالسة في الصف الأوَّل. نظر إلى عينيها برقَّة وأطبق شفتيه وهز رأسه يمينًا ويسارًا كأنه يعاتبها لأنها أقنعته أن يقرأ رسالته على الملأ.

رتَّب أوراق الرسالة وجمعها بين يديه الاثنتين وانحنى قليلًا فأوشكت شفتاه أن تُلامس الميكروفون وهمس فيه بصوت خفيف مسموع وبابتسامة حاسمة قالها ومشى:

«ليس هذا ما كتبت!».

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn

https://t.me/osn_osn

مكتبة إيلينا
Elena book

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أنوار

https://t.me/osn_osn

Scan me!

مكتبة إيلينا
Elena book

ليس هذا ماكتبت

د. خالد غطاس

ليس هذا ما كتبت!

"أريد أن أدخِل بعضَ الفكرِ في أفكارنا، بعضَ الحياةِ في حياتنا، بعضَ الإنسانِ في إنسانيتنا، ثم نُغيِّر بذلك الدنيا".

المؤلف في سطور

وُلد في صيدا عام 1983، ونشأ في بلدته برجا. درس في مدرسة الفنون الإنجيلية، وحصل على البكالوريوس في الكيمياء من جامعة بيروت العربية، ثم الماجستير والدكتوراه في علوم الأحياء من الجامعة الأمريكية في بيروت. انتقل بعدها إلى إسبانيا حيث حاز ماجستير في إدارة الأعمال الدولية. لا تقتصر اهتمامات المؤلف على البحث العلمي وإدارة الأعمال، وإنما تتخطاها لتشمل السلوك البشري وعلم النفس وحضارة الشرق الأوسط من شعر وفن ودين وفلسفة. ولقد حرص على توظيف هذا الشغف في محاولة نشر رؤاه وأفكاره في كتاباته.

هذا الكتاب:

يضم مجموعة قصص فلسفية قصيرة، طُرِحَت بطريقة فريدة مُبسَّطة، لتناقش معضلات اجتماعية وفردية تواجه الإنسان المعاصر من زوايا جديدة، إلا أن الكاتب لا يقدم حلولًا لأيٍ من تلك المعضلات، بل يحاول بأسلوب مباشر وغير مباشر أن يفتح أبوابَ الفكر لدى القارئ، للوقوف على أسبابها الحقيقية ليستطيع مواجهتها.

صدر للمؤلّف

DR. KHALED GHATTASS

تصميم الغلاف: محمود هشام

9789779922638

للتواصل مع الكاتب

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb